اعداد
ربيع الكتب
المزيد من الكتب الحصرية

www.facebook.com/groups/exchange.book

رابط التوجه لجروب ربيع الكتب

مجموعة قصصية

أنا لستُ بكرًا

ميسرة الهادي

الناشر: المكتبة العصرية للنشر و التوزيع.
جمهورية مصر العربية- المنصورة-برج المعمورة-(المشاية)
بجوار فندق مارشال الجزيرة.

هاتف: 2221875 50 20+ - 2342006 50 20+
فاكس: 2355055 50 20+ رقم بريدي: 35111
بريد الكتروني: m_bindary@yahoo.com

اسم الكتاب: أنا لست بكرا .
المـــــؤلف: ميسرة الهادي السيد .
الطبعة الأولي : ٢٠١٢
رقم الايداع بدار الكتب: ٢٠١١/٢٠٣٠٠
I.S.B.N : 978-977-410-261-9

حقـوق الطبـع و النشـر: جميـع حقـوق الطبـع و النشـر محفوظـة للمؤلـف و لا يجوز اقتباس جزء من هذا الكتاب، أو تصويره، أو اعـادة طبعـه ،أو اختزالــه بأيــة وسـيلة إلا بـإذن مكتوب و مسجل رسميا من المؤلف.

مجموعة قصصية

أنا لستُ بكرًا

ميسرة الهادي

الطبعة الأولى ٢٠١١

إهداء أول

إلى؛
سماح السعيد

ربما كتابي هذا ليس من قدركِ؛
لكنه أغلى ما عندي! .

إهداء ثانٍ

إلى؛

كل شرفاء العالم الذين لم ينتحروا بعد

هذا إن كان باقيا في هذا العالم شرف! .

المحتويات

- ١ -

أوركيدا السعادة	١١
دنيا رجال	٢٧
الكبار لا يدخلون الجنة	٣٩
الفصل الأخير من مذكرات وطن	٤٩
شاخير وكارع	٦٣
أنا لستُ بكرًا	٧١
عند منتصف الليل	٨٩

-٢-

غربان المساء	٩٣
بيضاء الثلج والأقزام السبعة	١٠١
على لسانِ لاهث	١١١
الغريب	١٢٥
أشباح العسكري الأسود	١٣١
آرماجدون	١٣٧
القِصَاص	١٤٥
أنين	١٥٣
تتر الكتاب	١٦١

-١-

أوركيدا السعادة

أوركيدا السعادة

(١)

ابتسِم.. ابتسِم.. ابتسِم.. ابتسِم ابتسِم.. ثم ابتسِم..

هذا هو مؤهل وظيفتي: الابتسام!.. دخلت كلية الهندسة كي أتعلم الابتسام!.. لم أتخيل وأنا ساهدٌ حتى الفجر أذاكر أن هذا سيكون مصيري، لم تكن هذه أحلامي قط. أنا الذي حسبتني سأصنع القنبلة الذرية في المعمل، وأشطر النواة إلى نصفين. أنا الذي ظننتني سأطلق صاروخا باسمي في الفضاء وأنا لازلت في السنة الأولى!. يبدو أن خطيئتي إسرافي في أحلامي، أو ربما خطيئتي اجتهادي في تحقيق حلمي رغم إسرافي فيه، أو لعلها كوني أحلم من الأساس!.

إني لأكره هذا العمل البغيض. أمقته. كل يومٍ آتي إلى هنا كي أخدم السادة، كما لو كنت عبدًا رخيصًا اشتروه ببخس المال. آهٍ يا أبي لو

علمت بحالي لَمُتَّ مرةً أخرى في قبرك. ألم يكن إخوتي أولى بالمال الذي أنفقته على دراستي؟ رحمكَ الله يا أبي فقد راح مالك هباءً على خمس سنوات ر احوا هباءً من عمر ولدك.

أجول. من ذلك الذي أراه هناك؟! اللعنة إنه محمود سلطان. برؤيته تعود لذاكرتي ألف ألف ذكرى كومضات الشهب: الكلية، والمدرج، والشلة.. زميلان كنا، لكن شتان الفرق بيننا الآن. هو المهندس العظيم محمود ابن المستشار الكبير سلطان بك، يعمل – فور تخرجه – في شركة بترول ضخمة.. وأنا؟ أنا أنتظر ردًا لن يأتي من ألف شركة، وأثناء ذلك أعمل مجرد (جرسون) في قاعة تُدعى أوركيدا السعادة. اسمٌ أحمق كالقاعة ومديرها، وكأن الزواج هو رَمز السعادة وزهرتها الوليدة!.

تأملوا القاعة معي..

تجاهلوا ذلك الزحام في المنتصف، إنه مكانٌ محرمٌ علىّ ولن أستطيع أن أريكم إياه عن قرب، هناك حيث يلتف السادة والسيدات في دوائر حول العروسين، يرهقونهما رقصًا وعبثا، فبالعبث يحققون سعادتهم.

دعوهم في عبثهم، ولا تنظروا إلى ذلك الشاب الأحمق الذي يدّعي الانسجام والمرح، صارخا في دوائر البشر أمامه أن يخلعوا أقنعة التحضر ويبدأوا في إلهاب أكفهم من التصفيق، ومؤخراتهم من الرقص المحموم.

لا تهتموا بذلك الضوء الأصفر القوي المعلق فوق كتف شابٍ يتحرك في كل مكان، يساعده آخر حاملا أسلاكا كثيرة يلفها حول يده كأنما ستهرب منه.

ولا تفكروا كثيراً في هؤلاء الشبا ب الذين يرتدون زيًا موحدًا، ويحملون الأطباق غدواً ورواحًا، مليئةً بالطعام مرةً، ومرةً بفتات البقايا. لا تتغامزوا عليهم فما أنا إلا واحدٌ منهم.

ولا تنظروا كذلك إلى كل تلك البذل الرسمية، وكل تلك الفساتين اللامعة؛ فالحقيقة أن كل هذا ليس إلا ضيفا على القاعة..

ارفعوا رؤوسكم وانظروا إلى الأعلى، إلى السقف والجدران. هذه هي القاعة: بضعة أنوار مختلفة، لا تدري من أين ولا إلى أين تأتي وتذهب: أخضر، أزرق، برتقالي، أحمر، أصفر.. ستائر بيضاء داكنة لقلة غسيلها، وبضع طاولات كبيرة ليضع فوقها السادة أطباقهم كي نحملها – نحن العبيد – إلى المطبخ كي لا تؤذي أنظارهم أو مشاعرهم الرقيقة. وحول تلك الطاولات التفت كراسي مغطاة بقطع لا تدري كنهها من قماشٍ له نفس لونِ الستائر، وفوقها مفارشٌ وردية اللون بعضها مليء ببقعٍ بدا لونها ورديًا في تلك الإضاءة المبهرجة، وعلى كل واحدةٍ منها علبةٌ من المناشف الورقية.

اعذروني فلن أستطيع سماعكم بسبب تلك الموسيقى الصاخبة، واسمحوا لي أن أباشر عملي، وأذهب لأحمل هذه الأطباق القذرة من فوق تلك الطاولة حتى لا يغضب عليّ مديري، لن أدع له فرصة خصم مليم واحد من أجري.

رفعتُ يديّ إلى وجهي، فمددتُ سبابتيَ إلى شفتيَ، وجذبت بهما جانبي فمي صانعًا صورة للابتسامة فوقه، ونحو الطاولة اتجهتُ محاولا تفادي تلكم الآنسات اللاتي يثرثرن في مرح، وأثناء ذلك اصطدم كتفي بأحد السادة فتساقطت قطراتٌ من الكوب الذي في يده على ملابسه..

- مش تفتّح يا أعمى؟

غاضبًا قالها وهو يستدير ليلقي فوق رأسي المزيد والمزيد من التقريع. وحين فكرت في رد لاذعٍ أرد به عليه دفاعًا عن نفسي، فأنا مهندس ولي كرامة، ولولا الظروف الملعونة ما كنت هنا إلا مدعوًا مثله، وحين قطبت حاجبي، وسيطر الغضب على عضلاتي، وقد قررت إلقاء كل كلام المدير خلف ظهري؛ التقت أعيننا..

محمود سلطان.. صديق الصبا..

لا أدري كم من الوقت مرّ وأنا أتأمله، ولا أدري إن كان هو حقا محمود سلطان أم أنني أتوهم لأني فقط أود لو أراه كي أحسده على ما هو فيه، كل ما أدريه أنه حرك شفتيه لكني لم أسمع شيئا مما يقول، أتراه هو وقد تعرفني؟ لن أعرف أبدًا؛ فقد اندفعت من أمامه بخطوات كالعاديات، وقد أيقنت أن على الذهاب إلى المطبخ فورًا وإلا حدث ما لَا تحمد عقباه.

وفي طريقي مررتُ على ذلك الشاب الذي يمسك بالميكروفون، ويدّعي المرح والانسجام، وتمنيت لو كنت مكانه فهو على الأقل يستمتع بوقته.

ولمحت حامل الضوء الأصفر ورفيقه، وتمنيت لو كنت مكان أحدهما، فعلى الأقل يبتسم الناس في وجهيهما، على عكس ما نلاقي نحن من عبوسٍ وتقريع.

وحين وصلت المطبخ؛ بكيت.. آه يا نفسي.. آه وألف آه..

- ماذا تفعل عندك يا حيوان أنت؟! يللا روح شوف شغلك.

كانت تلك من مديري طبعًا.. ودون أن أحادثه أو ألومه على نعتي بالحيوان – وأنا المهندس المحترم – عدتُ إلى القاعة حاملا طبقا مليئا بالطعام، ومصطحبا معي دموعي المختبئة خلف رموشي خوفا من كل هذا الزحام.

ولما رأيت وجه مديري العابس يتابعني من بعيد؛ تذكرتُ على الفور كلماته:

ابتسم.. ابتسم.. ابتسم.. ابتسم ابتسم.. ثم ابتسم...

فابتسمتُ!.

(٢)

بالرغم من ضيقي الشديد أتطلع لساعتي لأجدها الواحدة بعد منتصف الليل، وأعرف منها أن موعد استلامي لورديتي قد حان. وسبب ضيقي أن أمي مريضة، وعلاجها يحتاج إلى مستشفى خاص كبير، والمستشفى يريد المال.. الكثير منه.. ومن أين لي بالمال وأنا مجرد عامل (دي جي) في قاعة أفراح تُدعى أوركيدا السعادة؟ تعرفونها؟ عظيم. لا داعي إذن لأن أصفها لكم.

كل وظيفتي أن أشعل حماس المدعوين، فأحثهم على التصفيق والرقص، حتى يرتاح أهل العريس والعروس، وهم يرون الناس مسرورين في الفرح الذي دفعوا فيه مبلغا ضخما.

مهمتي مكانها فوق تلك الخشبة المستديرة المنتصبة في وسط القاعة، ولي صديقٌ يساعدني، هو الذي يقوم بتبديل الأغاني.. قد أبدل معه الأدوار الليلة، فلست أملك البال الرائق للمرح أو حتى ادعائه.

وصلت القاعة متأخرا عدة دقائق، لامني عليها المدير لوما شديدا وهددني بطردي، كما لو أنه سيطردني من الفردوس العظيم، ما هي إلا ملاليم قليلة لا تكفي حتى المواصلات.

اتجهت إلى مكاني المعتاد، وشكوت إلى صديقي سوء مزاجي، لكنه اعتذر متعللا ببردٍ شديد لن يمكّنه من تبادل الدور معي.

لم أجد مفرا من التظاهر بالحبور، حتى لا أُغضب علىّ هؤلاء السادة، فلعل أحدهم يعجبه أدائي فيطلبني في فرحٍ آخَر.

وسافرت على ظهر حصان خيالي إلى يوم فرحي، الذي سيأتي يوما ما، وتخيلتُ أني أقيمه هنا في نفس القاعة، ويأتيني عامل (دي جي) غلبان أمه مريضة، فأعامله باحتقار ولا مبالاة.. ابتسمتُ وأنا أتخيل انتقامي،

ثم أدركت أن الرقصة (السلو) قد انتهت، وأنه قد حان وقت الرقص المحموم، فتناولت الميكروفون الصغير، وبدأت في إشعال الحماس..

- بنهني العروسين وعايزين نسمع لهم زغروطة حلوة.

- فين أصحاب العريس؟

- طب فين صاحبات العروسة؟

- كلنا هنغني مع الأغنية الجاية.. ها جاااااهزين؟

يردون بصوتٍ عالٍ:

- جاااااهزين..

اللعنة لابد أن أكررها..

- مش سامع.. جاااااهزين؟

- جاااااااهزين..

رددوها – ككل مرة – بصوتٍ أعلى، وأظل ألقي على مسامعهم كلماتٍ لا معنى لها، وأراهم وهم يمزقون أقنعة الوقار، ويتحولون إلى أجسادٍ تفور، ينتشون مع الموسيقى، و قد انتُزعتْ أجسادهم من السكونَ الذي يسقمها من فرحٍ لآخر.

أركب الحنطور

درجن.. درجن..

واتحنطر..

يا الله! لو لم يكن هذا باب رزقي، والمصدر الوحيد الذي أُطعم منه أمي وأخواتي لكنت ركلتهم واحدًا واحدًا. أي حمقى هؤلاء الذين ينسجمون وهم يُشتمون؟!

أظـل أردد عـلى مسـام عهم كلـمات سـخيفة عـلى غـرار: لا أسـمع تصفيق أهالي العريس.. تصفيق أهالي العَروس أعلَى!.. والكثير مـن هـذا الهراء الذي يُسعدهم، حتى تأكل عقارب الساعة الوقت أكلا فيأتي وقت استراحتي ببدء البوفيه.

جلستُ مجاورا لصاحبي متجهما، فمال على أذني وهمس:

- بـلاش المـدير يشـوفك كـده. أنـت عـارف رذالتـه ممكـن يعملـك مشكلة ملهاش لازمة.

أومأت برأسي شاكرا فالحق معه، وأخرجتُ سيجارة أتشاغل بها عـن همومي، وأخذتُ أتأمل القاعة ومن فيها..

رأيت أحد عمال البوفيه وهو يتجه نحو تلك الطاولة ليرفع ما عليها من أطباق. وفي طريقـه اصـطدم برجـلٍ وجيـه ولا أدري لمَ أطـالا النظـر لبعضهما. بالتأكيد عامل البوفيه هذا ذكيٌ، عرض على الرجل أن يجـد لـه عملا ما يُحسَن به حياته. يا له من خبيـث!. ليتنـي كنـت عامـل بوفيـه لكنتُ أصبحتُ محاسبا محترما في شركة ما بدبلومتي التجاريـة. يـا لهـذا الوغد المحظوظ!. بالتأكيد يحصل على بَقشيش أيضًا من هـؤلاء السـادة المترفين، ليتني كنت عامل بوفيه!.

يقاطع عينيَ (المصور) والضوء الأصفر الغامق ينير كتفـه. محظـوظٌ هو الآخر، بالتأكيد يقف بعدسته أمام الحسناوات يغازلهن، ومن يعلـم قد تقع واحدةٌ في شباكه، فترفعه معها إلى مستواها الاجتماعي المرموق.

ما الذي جعلني عامل (دي جي)؟! ألم يكن الأفضل أن أصبح عامـل بوفيه، أو مصور أفراح؟! لا مفر من الأقدار. كـما أنـه لا مفـر مـن كـوني الرجل الوحيد لأمي وأخـواتي الـثلاث، وأنـه لابـد أن (أطفـح الكوتـة) كي أسترهن، وأعالج أمي وأحججها، ثم بعـد كـل هـذا - حلنـي - أفكـر في نفسي وأتزوج البنت فاط...

أفيق من تأملاتي على صوت هاتفي المحمول، يخبرني أنه قد وصلتني للتو رسالة، فألقي عليها نظرةً سريعة.

أختي تقول أن حالة أمي الصحية قد تدهورت لحد كبير، وأنه لابد أن أذهب إليهم على الفور، فالمستشفى يريدون نقودهم وإلا سيطردون أمي من هناك.

عيناي تسافران إلى عالمٍ مظلم وعقلي مشوش، أرى الدنيا باهتةً بغير ألوانها الحقيقية، أم أن هذه الألوان الباهتة هي الحقيقية؟!

ألتفت إلى يميني فأجد المدير يرمقني شذراً، فأتحامل على نفسي وأقوم..

سامحيني يا أمي سأتأخر عليكِ؛ فالسادة قد انتهوا من الطعام..

ويطالبون بوصلةٍ جديدةٍ من الرقص المحموم.

(٣)

أريد السفر إلى الخارج. لا يهم أين هو هذا الخارج، المهم ألا أبقى في الداخل.

ما الذي سأفعله هناك؟! أي شيء سيكون أفضل – بالتأكيد – من هنا، فمصور أفراح ليست الوظيفة المثالية التي تكفل لكَ الحياة المثالية.

ومن أين لي بتكاليف السفر، إذا كنتُ بالكاد أستطيع الحياة هنا؟!

اليوم عندي ثلاثة أفراح سأصورها، أولها في قاعة تدعى أوركيدا السعادة. لم أكن أعرف أنها بهذه الشهرة! كلكم تعرفونها؟!

نزلنا من التاكسي، أنا ومساعدي، حاملين معداتنا وأسلاكنا الكثيرة ودخلنا القاعة، فأخذنا نعد ما يلزم كي نبدأ التصوير.

أشعلت الضوء البرتقالي الذي يغشي الأبصار، وبدأت في تصوير المدعوين، لحسن الحظ أن الكاميرا أمام وجهي كي لا يظهر وجهي لهم

بذلك التعبير المقيت، حين ينظرون لي وكلهم يضع فوق وجهه ابتسامة صفراء، منافقة، متزلفة، وحين تدير عنه الضوء البرتقالي تجده يتجهم كما كان في برود.

وظيفةٌ مملة أليس كذلك؟ لذا أبحث عن الفتيات كي أصورهن، فعلى الأقل سأمتع عيني بدلا من تلكم الابتسامات الحربائية.

ما إن أقترب من إحداهن، وتشعر أن الكاميرا أطالت مراقبتها، حتى تنظر لي نظرةً كسهمٍ مسموم، تتفحصني من أخمص قدمي وحتى منبت شعري، فأتجاهلها وأ كمل دورتي وكأن شيئا لم يكن مقصوداً.

أجول هنا وهناك، أصور هذا وذاك، تلتقط عدستي الوجوه وأذني الكلمات، نميمة، غيبة، مؤامرات، دسائس، وكروشٌ كبيرة تضحك وترتج، وعلى سيرة الكروش؛ قد حان وقت البوفيه، ولعمري إنه لشيءٍ مسلي أن تصور هؤلاء العجول في الخفاء دون أن يدروا وهم كالأبقار الجائعة.

أشعل مساعدي سيجارة وناولني إياها كي أشاركه فيها، فأخذت منها نفسًا عميقا، وأطلقت الدخان من صدري وأنا أتابع ذلك الطبق المليء بالطعام الذي يحمله هذا العامل هناك. وضيقت عيني وأنا أتأمله، لا أدري لمَ يبدو لي على وشك البكاء!. ولا أدري كيف يبكي وهو يعمل في أحسن وظيفة ممكنة في هذا المكان!. بالتأكيد كل يومٍ يعود إلى بيته مُحملا بما لذ وطاب من الأطعمة التي تتبقى من أولئك الوحوش.

إن الإنسان مخلوقٌ عجيب! يكون في أحسن حال، ورغم ذلك تجده يريد أن يبكي. ما باله إن كان مكاني إذن؟! بضعة ملاليم لا تُسمن ولا تُغني من جوع، و(مرمطة) طول الليل خلف الأفراح في كل قاعات المدينة.

زفرتُ وقد علا صوت الأغاني من جديد، وبدأت الوصلة الثانية من الرقص بعد البوفيه، فلابد طبعا أن تهضم تلك البغال كل هذا اللحم الذي ملأت به كروشها.

اقتربت أكثر كي أصور العريس والعروس، ومن خلفي أسمع صوت عامل (الدي جي) وهو يمرح، ويحث الفتيات على إظهار مواهبهن في فتنة الشباب.

لكم أحسده!. فهو - على الأقل - يرضي نزواته وهو يشاهد كل تلك الفتيات يرقصن أمامه.

لا أدري لمَ لم أصبح عامل (دي جي) أو عامل بوفيه، بدلا من ذلك العمل المُرهق..

حتمًا سأصبح هذا أو ذاك، لكن ليس هنا، وإنما في الخارج..

فأرجوكم ادعوا لي أن أجمع كل تكاليف السفر.

(٤)

تعمدت ألا أذهب مع أمي إلى الفرح، وجعلتها تسبقني بنصف ساعة. أعلم أن خالاتي يتهامسن من وراء ظهري أني لازلت آخذ مصروفي من أمي، رغم أني أنهيت دراستي وجيشي. من ست سنوات، لكني - والله شهيد - بحثت عن العمل في كل مكان، لكنه يصر على التهرب مني، ربما لو كنت أبحث عن مخدرات لوجدتها أسرع، بالتأكيد كنت سأجدها أسرع.

تخرجت من كلية التربية النوعية، قسم الموسيقى، وقدمت طلبًا لوزارة التربية والتعليم، كي أعمل مدرسًا للموسيقى، لكني اكتشفت أنه لم يعد أحد يتذوق الموسيقى، ولم يعد أحد يهتم بتدريسها، ولم يعد أحد يهتم بدراستها. أنا المعتوه الوحيد.

في البداية كان الأمل يملؤني، وأخذت أبحث عن وظائف في تخصصي، فوجدتها كلها في حاناتٍ رخيصة أو فرقٍ موسيقية صاخبة

تعمل في النهاية في الحانات الرخيصة. رفضت. ومرّ الوقت وقلت العروض، ثم انعدمت.

كان ذلك فرح قريبتنا من بعيد، وأمي كانت تأمل أن تجد لي عروسة، أو توسط أحدًا من أقاربها المهمين الذين تفتخر بهم كي يوظفني في الحكومة أي وظيفة. كان وجهي يحتقن، وأشعر بالخجل من نفسي- وأنا أسمعها تتسول وظيفةً لي من أي أحد، لذا أرسلتها قبلي إلى الفرح، كي لا أسمعها تشحذ عليّ. لكني رغم كل شيء ارتديت بذلتي السوداء، فلم أشأ أن أخذل أمي التي أقسمت عليّ أن أرتديها، ثم ذهبتُ.

القاعة اسمها غريب، تقريبا نوع من الأزهار، لكنها في مكان جيد، وهي قاعة فاخرة لا بأس بها، فيها (دي جي)، وعمال للبوفيه، وليست واسعة إلى الحد الذي يُظهر العدد القليل للمدعوين.

كان عمال البوفيه يروحون ويجيئون هنا وهناك، وأخذت أتأملهم في زيهم: قميص أبيض، وبنطلون أسود، ورابطة عنق حمراء. جاءتني أمي وقالت لي أنها حدثت زوج ابنة خالتها المستشار وسيجد لي وظيفة في المحكمة عنده، ألست أعرف الكمبيوتر وأخذت رخصة قيادته؟ إذن أصلح للعمل. ثم شدتني من يدي ودفعتني دفعًا نحوه. كان واقفا وسط ثلاثة كروش ضخمة يرتدون بذات سوداء ويضحكون وهم يتحدثون، فتنحنحت وعرفته بنفسي فصافحني في قوة، وناولني كوب عصير من على الطاولة، وأخذ يحدثني عن أشياء لا معنى لها، ثم بدأ يتحدث مع الواقفين عن مباراة الأهلي والزمالك القادمة، كنت أرتشف من العصير، واندمجت معه في حديث عن التشكيل القادم للفريق، وأخذ يداعب صديقه الزملكاوي مداعباتٍ ثقيلة، فضحكنا جميعا.

أثناء ذلك اصطدم بكتفي أحد عمال البوفيه، فتساقطت قطراتٌ من العصير على بذلتي فأصابتها بقعة كبيرة بدا منظرها سخيفا،

فحاولت إبعاد العصير عنها بيدي سريعًا، وسمعت المستشار يقرع الشاب، ويسأله إن كان أعمى ولا يرى، فحاولت أن ألتفت كي أرفع اللوم عنه، لكنه حين التقت أعيننا حسبني سألقي فوق رأسه المزيد من الإهانة، فانصرف مسرعًا وهُيئ لي أنه يبكي.

وددت لو ذهبتُ فقبلت رأسه، وأنا أخبره أنه أكثر رجولةً مني، فهو على الأقل يأكل من عرق يده، ولم يعد يمد يده إلى أمه ليطلب منها حق علبة السجائر. وددتُ لو ذهبت وأخبرته أني سأكون شاكرًا جدًا لو جعلني أعمل معه، فأنا أريد أن أعمل. أعمل أي شيء، حتى لو كان المرتب جنيها واحدًا. لكن أرجوك.. أريد أن أعمل.

لم أعد أسمع صوت المستشار والدي جي صوته يعلو، والشاب الواقف يصيح في البنات والشباب ليتباروا في الرقص، كنت أراه وأنا أتمنى أن أكون مكانه، أصيح وأخرج حنقي على الناس، فالصياح هنا أمرٌ لا عيب فيه، إن لم يكن مزية كبيرة. ولما ضرب الضوء البرتقالي للكاميرا وجهي، أفقت من تأملاتي الحزينة، ورسمت ابتسامةً سريعة على وجهي المتجهم، فأنا لا أريد أن تقول طنط فيفي أنني متجهم في فرح ابنتها، ولا أريدها أن تعاير أمي بابنها العاطل الذي يأتي للأفراح ليحقد على عرسانها، ولما عبر الضوء أمامي، تجهمت ثانيةً، وتمنيت أن أكون مصوراتي.

أتمنى أشياء كثيرة جدًا، لكنها كلها تحتاج إلى العمل كي تتحقق.

أخذت أبحث بعيني عن أحد لأسأله أين أجد مدير القاعة، ولما أشار لي أحد عمال البوفيه عليه، وجدته يعنف عامل البوفيه الذي اصطدم بي، فتراجعت عن فكرتي، وقد رأيت الوقت غير مناسب، وقلت في نفسي- أنه لا يليق أن أذهب، وأنا مدعو محترم الآن لأطلب وظيفة، لكني قررت أن آتي لأطلب منه توظيفي في أي وظيفة هنا في وقتٍ لاحق، ربما ساعتها يكون هو رائق البال، وأكون أنا قد كففتَ عن التمني.

(٥)

هؤلاء – أصحاب الأفراح – يريدون الحرق. تمنح الواحد منهم أقل سعر ممكن لتأجير قاعة في المدينة، ناهيك عن أن القاعة هي أكبر قاعات المدينة وأفخمها، وتأتيه بالدي جي، وعمال البوفيه، وحتى المصوراتي، وتجده – رغم كل هذا الكرم – يتبغدد ويملي شروطه، وفوق كل ذلك، يقول لكَ بكل بجاحة: ما تهاودنا في السعر شوية!.

يا أخي تغور القاعة على الأفراح، على الجواز ومن يريدون أن يتزوجوا، بدلا من حرقة الدم هذه، ألا يكفيني مصاريف الأولاد ودروسهم الخصوصية، والبيه الكبير ساقط في أولى إعدادي، ويريد أن يصبح لاعب كرة، على أيامنا كان الواحد يذاكر على لمبة جاز، ولما كان الجاز يخلص، كان يذهب ليذاكر على لمبة العمود في الشارع، لكن ماذا أقول؟ جيل مرفه وجد كل شيء سهلا، ويريد كل شيء على الجاهز وهو جالس يهرش في مؤخرته كالنساء البائرة.

عندك مثلا هذا الأفندي، خريج كلية هندسة بسلامته، ويعتبر نفسه أحمد زويل، مالي أنا ومال دراسته، ولا يكفيه هذا الصداع الذي يقرفني به كل يوم، وأنه مهندس له كرامة ويجب ألا أعامله كما أعامل باقي زملائه في البوفيه، لكنه يأتي اليوم ويصنع مشكلة ويكاد يتشاجر مع المدعوين. يكفي طيبة لهذا الحد. لقد صبرت عليه بما فيه الكفاية، بعد انتهاء هذا الفرح سوف أعطيه حق الثلاثة أيام التي عملها من الشهر الجديد، وأرسله لأمه مع تحياتي، ربما أيضا أرسل معه ذلك الدي جي، صاحبه جاءني أمس وأخبرني أنه يسبني، وعرض أن يأخذ هو دور الدي الجي ومبدل الأغاني ويقبض نفس مرتب صاحبه، أعرف تلك الدسائس، لكن هذا الفتى على جانبٍ من الصواب، لماذا أدفع لاثنين طالما يمكن أن أدفع لواحدٍ فقط؟ أنا الفائز إذن، وتلك مشكلتهم معًا، لا

دخل لي بها، فليذهب عامل الدي جي إلى حجر أمه وليقشر معها بطاطس، حتى يتعلم كيف يشتمني من وراء ظهري.

وهذا المصوراتي، بدأ يطلب زيادة في الأجر، ويقول أنه يجمع تكاليف سفره إلى الخارج، يا أخي في ستين داهية، لكن زيادة في الأجر لن أدفع، كما أني لا أحب ذلك الأسلوب الاستغلالي، أنا سأعجل له بالسفر، فليذهب إلى البلاد التي يريدها من الغد.

يا مجدي.. آ.. بعد الفرح مُر عليّ في المكتب، هناك ثلاث دجاجات ستغادر العش، وسأعطيك مستحقات كل واحدة، كي تعطيها إليها.. إياك أن تنسى وإلا ستكون أنت الدجاجة الرابعة.. أفهمت؟!

(ديسمبر ٢٠٠٨)

دنيا رجال

دنيا رجال*

حين كنتِ صغيرة؛ كانت أمك تحملك على كتفها وهي ذاهبةٌ إلى السوق كل يوم، تضعك بجوار قصعة الطماطم، فلا يعرف المشتري إن كانت تبيعك أنتِ أم تبيع الطماطم..!

أبوك كان يأتي إليكما بعدما ينهي عمله في الفرن البلدي، ودائمًا كانت يداه متسختين بلونٍ أسود، وكنتِ تخشينهما، لكنك كنتِ تتقافزين فرحةً حين ترينه، تتقافزين على قدمك اليسرى وحدها، وأنتِ لا تفهمين لمَ لا يمكنك القفز على اليمنى!.. كثيرًا ما تأملكِ في أسى، ثم احتضنك وهو يتحسر على حظك القليل في الدنيا...

حين مات لم تفهمي ما الموت، حتى حين كبرتِ لم تفهمي ما الموت، كل ما فهمتِ أنه لم يعد هنا، كل ما بقى منه اسمٌ منقوش على حجرٍ في

* القصة الحائزة على جائزة ساقية الصاوي للقصة القصيرة ٢٠١٠.

منطقة مخيفة يسمونها المقابر الخيرية، وبيتٌ هو غرفةٌ واحدة تسكنيها وأمكِ.. حتى يده السوداء أخذها معه..

بعد موته ظلت أمك تأخذك معها إلى السوق، تجلسك جوارها، لم يعد هناك أحدٌ يهتم بمسح مخاط أنفك الذي يسيل، لم يعد هناك من يذب الذباب عن وجهك الصغير، لم يعد هناك من يأخذك إلى حمام الجامع فجعلت مكانك حمامك الخاص. . دومًا تنهرك أمك وهي تبعدك بسرعة عن الطماطم حتى لا تطولها رائحة إخراجك العفنة..

دعوت الله أن يأخذ – حتى – قدمك السليمة، ويعيد إليك أباك.. لكنه لم يأخذها، وأبوك لم يعد.

***

ولما بلغت من العمر عشرًا، كنت قد بدأت تفهمين الدنيا، أدركت أنك لست سوى غزالة عرجاء، لن تستطيع العدو هربًا من الأسود.. أتذكرين يوم جاء ضباط المرافق، فقلبوا لأمك الطماطم بأحذيتهم الميري، وقذفوا بها في وجهها، وهي تصرخ دفاعًا عنك وعنها؟ أتذكرين حين سبها الضابط وعساكره ينتزعونها من مكانها بأذرعهم؟ أتذكرين صوت بكائك الذي دُفن بصرخاتها؟ أتذكرين الناس الذين نظروا إليكما ولم يدافعوا عنكما؟ أتذكرين نظرة اللامبالاة التي كانت في عيونهم؟ أتذكرين؟

دعوت الله يومها أن يأخذ كلك، ويعيد أباك.. لكنه لم يأخذك، وأبوك لم يعد.

***

فتاتي.. لمَ كنت تشاكسين البنات الخارجات من المدرسة التجارية؟ كانت أمك ترفض أن تدللي معها، فتفقدين أجمل ما فيك.. أرادتك كما

أرادك أبوك.. كنت تخرجين معها إلى السوق، فتجولين هنا وهناك.. تزُكين على قدمكِ، تضايقين في البنات.. أكنت تغارين؟ أم تحسدين؟ حين ينتظر الواحدة منهن فتى بشاربٍ لم ينمُ كله بعد، وأنت لا ينتظرك أحد؟.. كنت تنظرين لقمصانهن البيضاء، وتنوراتهن الكحلية، ثم تنظرين إلى جلبابكِ الوردي، المليء بالبقع والرقع.. تتأملين أقدامهن السليمة، ثم تتأملين قدمكِ اليمنى في حسرةٍ لا تزيدكِ إلا مشاكسةً فيهن.

***

كانت أمك تكابد الزمن، والكبر يضنيها.. وظلت تصر على رفضها لطلبك بأن تجلسي مكانها وتبيعي أنت الطماطم.. أتذكرين عم جلال جاركم؟.. كان رجلا طيبا، يعمل موظفًا في مصلحة الشئون الاجتماعية، اعتبرك كابنته.. كانت أمك ترجوه كلما أتى ليشتري منها الطماطم؛ أن يجد لكِ وظيفةً تحميكِ من الدنيا وأذاها.. كانت تزيد له في المكيال، وتمنحه بالخمس ثمرات مرةً واحدة فوق طلبه.. يتبسم وهو يعدُها بأنه سيبذل ما في وسعه فتهلل وتدعو له كأنما قد عينكِ رئيسة الدواوين.

***

حقًا صدق الرجل وعده، وجلب لكِ وظيفةً في الوحدة الصحية بطفح الدم، بعدها مات وكنتِ تبكين في حرقةٍ.. ها قد مات أبوكِ من جديد...

***

مع أول شعاع شمسٍ يدخل من شباكك الأخضر، فيهدهدك ويطقطق لكِ أصابعك مداعبا؛ تستيقظين.. منذ أعوامٍ كثيرة لا تدرين لها عددًا وأنتِ تستيقظين مع هذا الشعاع، ربما استيقظتِ يومًا قبله فانتظرته، لكنك لم تستيقظي أبدًا بعده..

قمتِ من سريرك: متعثرة الخطى؛ بقدمك اليمنى المعوجة أسفلك، متعسرة الهضم؛ فقد طمس الفول على الفول.. انتهيتِ من حمامكِ

البلدي الذي كان عسيراً، وانحنيتِ على الكنبة المجاورة لسريركِ الصغير، تداعبين أمكِ بكلماتِ ناعسة حتى أفاقت..

إلى ركن الغرفة رحت. ومن فوق الشماعة الخشبية البسيطة المعلق فوقها عدة جلابيب؛ اخترتِ جلباباً، وربطتِ رأسكِ بالطرحة التي اشتريتها من راتبكِ الأول..

أمام المرآة الصغيرة النصف مكسورة وقفتِ..

يا لجمالك!.. حقًا أنت جميلةٌ، بيضاء كالقشدة يحلف ببياضك كل نسوة الحارة، عودك فرنساوي كعود أمك.. أ نتِ قمرٌ إذا تغاضينا عن هالة سوداء أو اثنتين أسفل عينيك.. أنت فاتنةٌ إذا تجاهلنا عرجك الشديد الذي لا تخطئه عينٌ إلا عمياء.. لكنَ أيتجاهل العرسان ذلك؟

أنتِ لا تخرجين من البيت إلا بحثًا عن واحد، ولا تدخلينه إلا لتسألي عن واحد، أجاء العريس يا أمًّا؟ ولِمَ لم يأتِ بعد؟! هو أنا وحشة؟!

تنظر لكِ ولا تجيب...

***

تخرجين من البيت، فتجدينه.. كل يومٍ هو واقفٌ ينتظر.. لو كان غرضه شريفًا لطرتِ من الفرحة به.. لكنه حقير، وقح، كشعاع القمر يتلصص عليكِ وأنتِ نائمةٌ بالليل.. اسمه فوزي، يده سوداء تذكرك بيد أبيكِ، لكنها سوداء بسبب شحم السيارات التي يرقد تحتها يصلحها.. يعمل في ورشة الأسطى حمدي على أول الحارة، ويبدو أنه وضعكِ في عقله ولن يثنيه أحدٌ أو شيء..

كل يومٍ حين تخرجين ذاهبةً إلى عملك يكون هنا، واقفا ينتظرك وعيناه تلمعان بنظرة ذئبٍ وجد - أخيراً - خرافًا بلا راعي أو كلب.. يقترب منكِ ولسانه يتحدث بحسن الكلام وقبيحه معًا..

- ما كل هذا الجمال يا بنت؟! ستكونين فرسًا في السرير.. ارضي عني وسأجعلك تأكلين لحمًا كل يوم.. سأعطيك خمسين جنيهًا في الساعة الواحدة.. آه يا بنت.. ستكونين فرسًا في السرير..

تتجاهلينه فقد اعتدت سفالته، لكنه اليوم يقترب وبشدة، بكفه يضرب صدرك ويبعدها في سرعة، تستديرين وقد احتقن وجهك.. لقد حدث مالا تتوقعين.. تصرخين..

- والله لأمّ الخلق ليعطوكَ علقةً لن تنساها أيها الزبالة..

- أموت وتكوني في سريري وأنا فوقك!..

- تعال اطلبني من أمي إن كنت ترغبني..

لدهشتك يضحك.. تصرخين، ويضحك.. تصرخين، ويضحك.. والناس تنظر وتضحك، وكأن ضحكته بصوت وصراخك أخرس.. تقولين لنفسك: إنهم لا يسمعون إلا الرجال!..

***

لا تعرفين كيف فلت من فوزي اليوم، ولا كيف تفلتين منه كل يوم.. المهم أنك تصلين إلى عملك في وحدة رابع النجار الصحية، تلك الوحدة التي تطل على السوق العمومي مباشرةً، تجلسين هناك فتسمعين أمك تزعق بسعر الطماطم متغنيةً بحمارها في فرشتها على مدخل السوق..

في الوحدة تشعرين براحة كبيرة، فهي قريبةٌ من البيت، وتجعلك تخالطين رجالا كُثر، بل وتلفين على البيوت أيضًا مع نوال الممرضة الشابة، أحيانًا يصاحبكما طفلٌ أو شابٌ، يطلقون على أنفسهم أسماءً لا تفهمين لها معنى: كالكشافة والجوالة.. وأحيانًا أسماء تفهمين منها أنهم يتبعون الحكومة أو الجمعيات الخيرية، لكنكما اليوم ستلفان وحدكما، كالمعتاد تناولك نوال حقيبةً زرقاء ثقيلةً قليلا وتنطلقان..

آنستي.. لا تنكري استمتاعك بهذه الوظيفة، رغم عائدها القليل، ورغم مشقتها، إلا أنك مستمتعة.. ألست؟!.. لقد درت البلدة كلها، لم يبقَ إلا بضع مناطق تُعد على أصابع اليد، لكنها للأسف من اختصاص وحدات أخرى.. لا يهم.. إن وظيفتك تمنحك ثقةً من الناس كبيرة، ألا ينظرون لك على أنك منقذة أطفالهم؟ بل وأحيانا ما يأتون فيسألونك عن مواعيد وأشياء؟ كثيراً ما تجهلين الإجابة، لكنك ترسمين بحاجبيك الرفيعين علامة التذكر وتقولين:

- والنبي ما أنا فاكرة.. روحوا اسألوا في الوحدة وهناك سيخبرونكم..

من ألسنتهم ينهمر الشكر عليك كأنما أجبت الإجابة الوافية، فلا يزيدك إلا حباً في وظيفتك، وترحماً على عم جلال...

***

تبدأ رحلتك مع نوال، تطرقان الأبواب بحثا عن أطفال لم يتعدَ عمرهم الخامسة.

بوطأة الوقت – وللوقت وطأة – أصبحت تحفظين البيوت التي تحوى أطفالا، بل إنك تحفظ ين بعضًا من أسمائهم وأعمارهم كذلك..

حين تكتب نوال اسم الطفل في دفترٍ لا يبرح يديها، فإن أمتع لحظات حياتك تحين. تأمرك بلهجة سريعة: قطرتان، أحيانا ثلاث، أو أربع.. وأنت تطيعين الأمر دون نقاش، فأنت في أمس الشوق إليه.. تتكئين على قدمك السليمة، لتحملي الطفل بين يديك – ويا سلام لو كان رضيعًا – وتبسملي عليه، وتحوقلي، ثم تفتحي فمه الصغير، وتقطري فيه عدد القطرات الذي حددته لك نوال، قبل أن تعيدي القطارة الصغيرة إلى أخواتها الكثيرات في العلبة الزرقاء..

حين تحملين الطفل؛ تطفو على يديك ووجهك كل مشاعر الأمومة الغارقة داخلك، فتحلمين بالطفل الذي سيناديك: ماما.. ستسميه جلال،

أو أحمد على اسم جدك، لا بل إبراهيم على اسم أبيك، رحمهم الله جميعًا.. لكن ماذا إن كان بنتا؟ ربما سميتها مروة على اسم طبيبة الوحدة علها تصبح طبيبةً مثلها، أو عيشة على اسم أمك.. لكنك أبدًا لن تسميها نوال..

ولم تكوني تطيعين نوال بالحرف الواحد، فحين تذهبين لتطعيم أطفال الخالة أم الخير الخاطبة؛ تستوصين بهم وتقطرين في أفواههم العدد الذي يخطر ببالك، حتى أنك في مرة أنهيت قطارةً كاملة في فم الولد إبراهيم، أتذكرين الحساسية التي أصابته بعدها؟ لم يستطع أحدٌ أن يربط بين ما فعلته وما حدث، حتى أنت لم تستطيعي..

المهم أنك تفعلين ذلك وأنت تنظرين لأم الخير في مسكنة واستعطاف، فتضحك الحيزبون وتقول:

- عقباك لما تطعمي أولادك..

ثم تضيف في خبث:

- بأمر الله عريسك عندي يا بنت..

تتصنعين الخفر وتضحكين مغمغمةً:

- متى يا خالتي؟ متى؟

فتلكزك بمرفقها في كتفك وتقول:

- قريبا يا بنت.. قريبا..

***

وبالرغم من أنك في آخر مرة ذهبت ليسننوك، فمنحوك ما يزيد عن الثلاثين بعام، لم تيأسي..

وكيف تيأسين وقد تزوجت قبلك بديعة؟!.. وأين بديعة الرفيعة كشعرة من ق وامك الممتلئ قليلا المثير؟! وأين بديعة بشعرها القصير

المجعد المقمل من شعرك الأسود الطويل الذي تغسلينه بالجاز كل أسبوع؟! وأين بديعة السوداء كفحمة من بياضك النقي الذي لا يفرق عن اللبن في شيء؟! أين بديعة من كل هذا؟!.. لكنها تزوجت.. تزوجت رجلا يحميها من شرو ر دنيا الرجال، أسدًا يقيها عضات الذئاب.. تزوجت ظلا يظلل عليها، وذكرا يشبعها.. لقد ملكتْ الدنيا.. لن يضايقها بذئٌ مثل فوزي أبدًا إلا وقتله زوجها، لن يخوض الناس في سيرتها إلا والخوف يملؤهم أن يسمع زوجها، بالتأكيد يعطف عليها كأبيها، ويحن عليها، وتبكي على صدره تشكو له من كل الدنيا ولا تخاف.. رباه!.. لقد ملكت الدنيا.. ملكتها لأن قدميها سليمتان.. إن العرسان لن يرضوا بواحدة عرجاء حتى لو كانت ست الحسن والجمال، ربما قبلوها لو كانت غنية، أو متعلمة، أو حتى صغيرة في السن.. لكنك لستِ هذه أو تلك، ورغم ذلك لا تيأسين...

***

لم تفهمي لمَ يقتصر عملك على الأطفال فقط، ولم تفهمي أصلا ما تلك القطرات التي تعطيها لهم، حتى لم تعي معنى كلمة (تطعيم) تلك..

ولم تسألي. وإن سألت سيسخرون منك ولن يجيبوا. وإن أجابوا لن تفهمي في الأغلب. وإن فَهمتي فقولي عَلى المرضى السلام؛ فكيف تفهمين ما تفهمه الحكيمات، والممرضات، والطبيبات؟ كيف تفهمين ما يفهموه وأنتِ لم تتعلمي في حياتكِ سوى الفاتحة؟ عذرًا.. فإن للدنيا قوانينها..

لكنك لستِ غبية، فالفقر لا يعني الغباء، حتى الجهل لا يعني الغباء.. لَقد فهمت، فهمت أن التطعيم هو تلك القطرات الموجودة في العلبة الزرقاء، وأنَ تلك القَطرات هي أدويةٌ لأمراضٍ بعينها..

اليوم حين سألتِ نوال عن المرض الذي تحمون منه الأطفال قالت:

- نحميهم من العرج حتى لا يكونوا عُرجًا مثلك يا عرجاء!

لم تغضبي أو تتضايقي من كلماتها، فقد اعتدتِ جفاءها وكلماتها المدببة كالرصاص، بل على العكس فرحتِ.. ليس للكلمات، ولكن للحدث نفسه.. وفي خبثٍ تناولتِ قطارةً من العلبة الزرقاء، ورفعتها إلى فمكِ لتفرغيها كلها فيه، سعلتِ قليلا من مذاقها المر، لكنه لم يفاجئكِ ألم تَذوقيه مرارًا؟.. ألستِ في كل مرة تعرفين أن الدواء دواء آفتكِ؛ تتناولين منه قدر ما تستطيعين دون أن تَلمحكِ (نوال)؟!!

***

تنهيان جولتكما، فتعودان إلى الوحدة من جديد، تسلمين العهدة – الحقيبة الزرقاء – ثم تمرين على أمكِ لتساعديها في حمل ما بقي في القصعة من طماطم لم تباع إلى بيتكما القريب...

الليل يحتل السماء، ويتوج القمر على عرشها، والليل ظلامةٌ، لليل رهبةٌ، لليل صمتٌ، لليل شعورٌ يزحف على فقرات عنقكِ فترتعشين.. لكم تخشين الليل!.. لكم تكرهينه!..

تستلقين فوق سريركِ الصغير، تجاوركِ أمكِ على كنبتها، يقتحم ظلام الليل وصمته غرفتكما، يستوطناها، فيسودّ كل شيء، حتى الخيال!..

تقبعين على سريركِ لا تعرفين فيمَ تفكرين، حتى يتعالى شخير أمكِ المنهك، تستمعين إلى الألحان التي تصنعها بأنفها وفمها معًا، وتنسينَ نفسكِ لتغرقي في نومٍ عميق...

بعد ساعة تشعرين بيدٍ خشنة تتحسس فخذكِ من أسفل جلبابكِ المنزلي، تحسبينه حلمًا، لكن تلك اليد تتحسس وجهكِ أيضًا.. لا.. هناكَ

أكثر من واحدة.. هناك يدٌ فوق وجهك، وأخرى على رقبتك، وثالثةٌ على صدرك، ورابعةٌ بين فخذيك...

أفقت.. هناك جلبةٌ، تحاول أن تكون خافتة، لكنها لأذنك مفضوحة.. فتحت عينيك، هناك أربعة، أربعة يلتفون حول جسدك كأنه وليمة.. هناك وجهٌ تعرفينه، إنه فوزي.. من فمك تطلقين صرخةً مفزوعة، لكن فوزي يوأدها مكممًا فمك بيديه، أمك قامتْ تضرب فيهم بعصا المقشة الخشبية، دفعها أحدهم فاصطدمتْ بالحائط وسقطتْ، أنت تخمشين وجه فوزي بأظافرك، تعضين يده القابضة على فمك، ترفصين بقدمك اليسرى في الوجوه والصدور، حتى قدمك اليمنى تكالبتْ عليك معهم، يحاولون تكتيفك، تقوم أمك من وقعتها، تضرب ظهر أحدهم بالمقشة، يلتفت إليها، يمسك منها المقشة ويشج بها رأسها.. زاغتْ عيناها والدماء تسيل على جبهتها وسقطتْ.. أطلقت صرخةً لم تخرج، وازدادت مقاومتك، تحاولين القيام من فوق السرير تدفعينهم في عنف، بقبضته يضربك فوزي في عينك وأنفك، وبكفه يلطم خديك، فينقضون على جسدك الأبيض، يقطعون الجلباب، ينهشون من لحمك الطازج، ولا تملكين إلا الدموع..

مع صوت الفجر، ينتهي كل شيء، ويفرغ الأكلة من قصعتهم، ويسود صمتٌ قبيح، كأن العالم كله قد فني.. صمتٌ لا يقطعه إلا الأنين، ودقات قلبك المرتجف..

***

مع أول شعاعٍ دخل من شباكك الأخضر، شعرت بالخوف منه، كيف تواجهين شمسًا فعل بك قمرها ما فعل؟!.. أمك تقوم من سقطتها، تتحسس رأسها الذي شُجَ، تبكي وهي تراك راقدةً على ظهرك، رجلاك

متباعدتان، والدماء تغرق السرير، وآثار اللطم والضرب كالعرق فوق جسدك، تقوم فتحضر ملاءةً تستر عريك بها، وتقول من وراء دموعها:

- إياك أن يعرف أحدٌ بما حصل!.. إياك..

لم تتحدثي إلا بدموع، قبلتْ رأسك باكيةً، وقفت تنظر حولها في حطام الغرفة، لا تدري ما عليها فعله، لم تشعر بنفسها إلا وهي تمسك بقصعة الطماطم خارجةً، ودعتك بدموعٍ فلم تردي إلا بالمزيد منها..

***

حين أتوا لزيارتك، لأنك لم تعودي تذهبين للعمل؛ أخبرتهم أمك - من خلف الباب - أنك بعافية قليلا، وأنها ستبلغك سلامهم.. كنت لازلت على رقدتك لم تضمي قدميك أو تحركي يديك، حتى دموعك ظلت تتدفق في الأخاديد الزرقاء المحيطة بعينيك، وترتجف فوق خديك المجروحين..

تقررين الخروج، فجأةً شعرت أن كل ما في الغرفة يخنقك، يجثم فوق صدرك، كأنها سجنٌ حبستِ فيه نفسك بيدك، ستخرجين، عدتِ أم لم تعودي، ستخرجين..

قمت دون أن تغسلي وجهك، ارتديت جلبابًا وطرحةً أسودين، خرجتِ إلى الشارع تنظرين حولكِ في ذعرٍ، لا تعرفين لمَ بدا لكِ أناس الشارع كلهم رجالا، ولمَ بدوا كلهم يضحكون..

وأثناء سيرك تمر عليك أم الخير، وحين تراك من بعيد تضحك في خبث وتقول:

- قريبا يا بنت.. قريبا...

(إبريل ٢٠١٠)

الكبار لا يدخلون الجنة

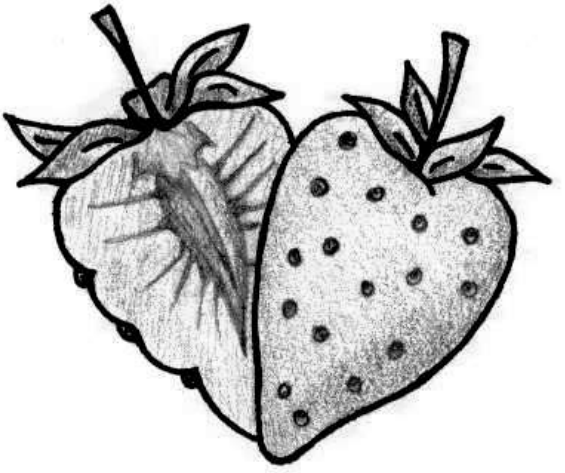

الكبار لا يدخلون الجنة

هو ليس صغيراً كما تقول الأبلة.

هو ليس كبيراً كما يقول كل عمو يقابله وهو مع أبيه..

" كبر وأصبح رجلا ما شاء الله.. "

ثم يميل عليه ويسأله نفس السؤال السخيف الذي يكرهه كما يكره مادة الدراسات: " ناوي تبقى إيه لما تكبر؟ "

هو لا يريد أن يكبر!.

<< مش عايز أكبر.. !>>

كلهم تحمر وجوههم وآذانهم حين يقول هذا، كما يحمر وجهه هو أمام أستاذ علاء عندما ينسى كراسة الواجب..

هو لا يريد أن يكبر.. ولماذا يكبر؟! ألا يمكن أن يعيش هكذا حتى يدخل الجنة أو يدخل النار؟! يريد أن يدخل الجنة، لذا لا يريد أن يكبر.. الكبار يدخلون النار!.

لا يريد أن يكبر؛ فيكذب كما يكذب بابا على ماما، وتكذب ماما على بابا، قال أستاذ سمير مدرس الدين أن الكذاب يدخل النار!. ولا يريد أن يضرب الأولاد كما يضربه بابا هو وإخوته، فأستاذ سمير قال أن من يضرب الناس يدخل النار!. لكن حتى أستاذ سمير يضربهم حين لا يحفظون الدرس، أستاذ سمير أيضا سيدخل النار، وأبلة هانم ستدخل النار فهي تشتمهم كل حصة، وتشتم الناظر أيضا حين يخرج من الفصل، وماما قالت أن من يشتم أحدًا وهو غير موجود يدخل النار، لكن ماما تشتم عمته وهي تكلم خالته في التليفون حين يكون بابا غير موجود، وبابا يشتمهم دائما، يلعن أبوكم ولاد كلب.

وأستاذ أحمد أخبرهم أن أستاذ علاء سيدخل النار، لأنه يفتن على زملائه الأساتذة للناظر، والذي يفتن يدخل النار، ثم يسألهم من أحدث الجلبة أثناء دخوله للحصة، فلا يفتن أحد، فيقول أن من سيخبره لن يُعاقب، لكن أحدًا فيهم لا يفتن حتى لا يدخل النار، فيضربهم جميعا.. هو لا يفهم ما الذي يريده الكبار، وحين يقول لأحدهم لماذا تكذب أو تفتن أو تشتم أو تضرب، أنت هكذا ستدخل النار.. يبتسم له ويقول أنت لا زلت صغيراً، لما تكبر هتفهم.. هو لا يريد أن يكبر، حتى لا يدخل النار. هو يحب ربنا، ويريد أن يدخل الجنة حتى يأكل كل يوم فراولة دون أن تصيبه الحساسية، وكي لا يحتاج إلى المصروف كي يشتري الحاجة الحلوة. يريد أن يدخل الجنة، فهناك لا أحد سيضربه ولا أحد سيشتمه، وهناك لا أحد سيعاقبه على الواجب، ولا أحد سيمنعه من ركوب

العَجَلَة طوال اليوم.. يريد أن يدخل الجنة، ففي الجنة لن يفصلوهم عن البنات!.

أبلة عفاف أخبرته أنهم سيفصلونهم عن البنات حين يكبروا، ويصبحن هن في مدرسة وهم في أخرى..

لا يريد أن يكبر فتبتعد عنه..

لا يريد أن يكبر فيَحرم من نظراته المختلسة إليها..

لا يريد أن يكبر فلا يراها ترفع إصبعها الصغير ترغب في إجابة سؤال..

ولا يريدها أن تكبر فتصبح ضحكتها مكتومة إلا خلف الجدران، كضحكة أخته الكبيرة التي إن ضحكت في الشارع يزجرها أبوه ويضربها..

لا يريدها أن تكبر فتخفي شعرها الأسود القصير حتى كتفيها عنه، كما تخفيه أخته وهي تذهب إلى مدرستها..

لا يريدها أن تكبر فتخيفها عيناه وهما تتابعان خطوتها، كما تخيف نظرات الكبار أخته رغم أنها كبيرة مثلهم..

ولها خطوةٌ لم تعرف الأرض أجمل منها، كالفراشة التي يمسك جناحيها ثم يضعها على يده، فتقف عليها خفيفةً ربما حتى هي ليست واقفة ولكنها تطير فوق يده.. تنساب كهواء البحر في المصيف.. خطوتها لا تترك أثرًا في تراب حوش المدرسة، ليست كباقي الخطوات التي تترك آثارًا غليظة يتوجع منها التراب..

والخطوة تقود لمشية، والمشية كالخطوة بلا أثر على التراب.. لكن آثارها لا تنتهي داخله.. يشعر كأنما هي تمشي فوق جسده هو، ويكون فرحًا بإحساسه هذا كثيرًا، ويستشعر شيئًا يدق بعنف في صدره على الجهة الشمال، قال أستاذ أيمن أن هذا هو القلب وأنه يَضخ الدماء إلى

باقي الجسم، لكن لماذا يدق القلب؟ يقول أن قلوبنا تدق لأننا أحياء، وأنها إذا توقفت سنموت.. لكنه لا يشعر بدقات قلبه إلا حين يراها، أحين لا يراها يكون ميتا؟ أم هي التي تملك نبض قلبه في عينيها، وإذا لم ينظر إليهما كل يومٍ يموت؟

وعيناها هاتان لم يرسم غيرهما في حصة الرسم، كل حصة تطلب منهم أبلة نوال أن يرسموا شيئا فلا يرسم سوى عينيها.. يظل يختلس النظرات إليها وهي تمط شفتيها وتتخيل شيئا ترسمه، ثم يتأملها وهي تخط بقلمها على الورقة أمامها وعلى شفتيها ابتسامة، تصيح الأبلة أن يستعد كلٌ منهم كي ترى لوحته؛ فيفزع.. ويمسك القلم محاولا رسم أي شيء، لكنه لا يجد أجمل من عينيها كي يرسمه، تمسكه الأبلة من أذنه وتعتصرها وتشخط فيه أمام الفصل كله، فيظل ينظر في الأرض خجلا.. يخجل من أن تفهم أنهما عيناها هي..

وهي أيضًا تخجل، فيرى وجنتيها حمراوين كالفراولة؛ حين تقول أبلة نوال أنها أجملِ البنات وأشطرهن.. وترفع لوحتها أمامهم لتريهم ما رسمته، فيري شمسًا ترسل أشعتها إلى أرضٍ خضراء واسعة، تقف عليها بنتٌ صغيرة وسط زهورٍ بكل الألوان.. لَطالما تخيلها هكذا وهو في البيت، أجمل من كل ورود الحديقة..

ولها شفتان جميلتان تمطهما حين تفكر، وحين تكشر، وتفردهما حين تبتسم، هل إذا ذهب فقبلها من شفتيها ستقول للأبلة؟ في الأفلام يفعلون هذا، كل ولد يختار فتاة جميلة ويقبلها، لكنهم في الأفلام لا يقولون للأبلوات!.

في حصة العلوم قال لهم أستاذ أيمن، أن النجوم تضيء، وأنها تعيشِ في السماء.. لَمْ لَمْ يقل أن هناك نجومًا أيضًا تعيش على الأرض؟ ألم ير

وجهها المنير كنجمة في السماء ليلا حين ينظر في النافذة قبل أن ينام؟ دوماً يرى النجوم فيمد يده يحسب سيمسكهم، لكنهم بعيد.. مثلها..

يمد يده ثانيةً يحاول جمعهم ليصنعهم عقدًا يهديه لها فيفشل، فيخرج ورقةً يرسم فيها عقدًا من نجوم ويطويها في عناية ويضعها في جيب بنطلون المدرسة..

وفي الفسحة تنزل إلى الكانتين فتشتري شيبسي. تحب هي الشيبسي، تمسكه وفي عينيها فرحة، لكنها أجمل من الشيبسي، وأحلى من الشوكولاتة والبونبوني، وأجمل من كل الحاجات الحلوة.. يحاول أن يقترب منها كي يعطيها عقد النجوم، فيسير متوترا يقدم قدماً ويؤخر أخرى، تضحك مع صديقاتها وهي تأكل الشيبسي، تلتفت ببصرها نحوه فتتلاقى عيناهما للحظة، فيضطرب أكثر وينظر إلى قدميه فيتعثر ويسقط وسط ضحكات الجميع..

قام مسرعًا ينظف ثيابه من التراب الذي أصابها، وهو يريد أن يهرب من كل العيون، يرفع بصره نحوها فيراها تأتي جواره، تُقدم له كيس الشيبسي- كي يشاركها فيه، فيأخذ منه واحدة وهو يحاول أن يداري ارتعاش يده واحمرار خدوده دون جدوى.. مد يده في جيبه ليخرج العقد الورقي فاكتشف ضياعه أثناء سقوطه، يود أن يقول أي شيء لكنها تبتسم وتتركه لتعود لصديقاتها.. يقف يتأمل خطوتها ومشيتها، وهو يتمنى ألا تكبر أبدًا؛ ألا يمكن أن يظلوا صغاراً؟ فهو يريدها أن تكون معه في الجنة، والكبار لا يدخلون الجنة!.

(سبتمبر ٢٠١٠)

الفصل الأخير من مذكرات وطن

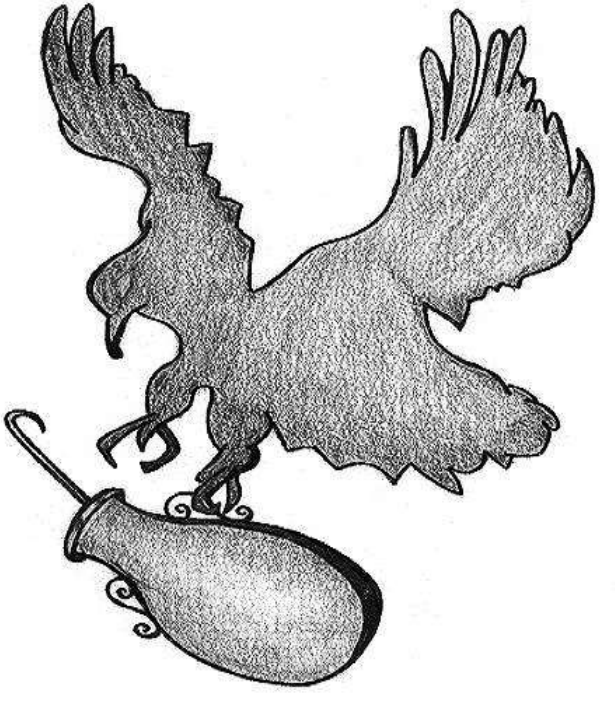

الفصل الأخير
من مذكرات وطن*

الفصل الأخير: You Tube

إهداء: أهدي هذا الفصل إليكَ يا صديقي العزيز سالم، علكَ به تدرك أني لم أنسكَ وأني أخبر العالم كله بما جرى، وتكتموا عليه.. صديقي.. ليتك تعرف أن حتى من هم مثلي، لم يجدوا لأنفسهم مكانا في ذلك البلد...

صديقك المخلص/ عمار

---

*تنبيه: هذه الصفحات هي الفصل الأخير المعنون بـ(يو تيوب)، من كتاب (مذكرات وطن) المحظور اقتناءه في مصر، والذي ألفه المفكر المصري عمار يسري في منفاه في ألمانيا.

(١)

في العام ٢٠٠٦ وقبل تلك الأحداث المأساوية التي تشهدها مصر- بحوالي تسعة أعوام أو تزيد قليلا - كنت في الرابعة والعشرين من عمري، وكان لي صديق يُدعي سالم عبد الفتاح، كنا زميلين في الدراسة، لكنه والحق يُقال كان متفوقا عني، دائمًا ما كان يعلوني فيكون الأول وأكون الثاني.. تم رفض تعيينه معيدًا بالقسم، وكنت قد أخبرته يومها بألا يأمل في التعيين من الأساس، فليفعل مثلي: استغليت تقديري العالي، وذكائي، ومعارف والدي في بعثة إلى لندن أتم فيها دراستي.. لكنه رغب الاستقرار بمصر، كان يقول: أبي يَحتاجني يا عمار.. كنت أفهم من عينيه الذكيتين أنه يكابد حلمه لأجل أبيه، يود لو يرفع الحمل الثقيل عن كاهله، أن يريحه من عربة الفول المتنقلة، التي قصمت ظهره، وأفنت صحته.. يأمل في تزويج أخواته الثلاث وتستيرهن.. يتمنى كل ما يتمناه كل بسيطٍ في أي وطن.. كل من عرف معنى الجوع، معنى العري، معنى الضَياع.. وما أكثرهم!.

(٢)

في فجر يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من فبراير، اتصل بي سالم متوترًا وطلب مني أن أذهب إليه فورًا بسيارتي، أخبرني أن...

- لم يعتد أبي أن يتأخر كل هذا التأخير.. أخشى أن تكون النوبة قد عاودته.. أنا أعرف الشوارع التي يتردد عليها، سنمر عليها لعلنا نجد شيئا...

لم أشأ أن أصفعه قائلا ما يقوله المصريون دائمًا من أن (الصباح رباح) و(يا فتاح يا عليم النهار له عينان).. ذهبت إليه من فوري، وطفقنا نفرد الشوارع ونطويها دون أن نجد أثرًا للعجوز..

حتى إذ أشرقت الشمس؛ ذهبنا إلى المستشفيات التي تستقبل الحالات الطارئة في ذلك اليوم، إن كنت مصريًا فستفهم مقدار الإرهاق الذي أصابنا أثناء البحث في المستشفيات.. الأول يقذفك إلى الثاني كأنك الطاعون، والثاني – مشمئزًا – يحولك إلى الثالث كأنك الملاريا..

- استلام الطوارئ عند الدكتور النبطشي.. سأحولك إليه..

- أسماء الحالات تذهب كلها إلى مدير الوحدة والشئون.. سأحولك إليه..

- في أي وقت جاءت الحالة؟ إذا كنت لا تعرف، أمطلوب مني أنا أن أعرف؟ سأحولك إلى الاستقبال لتعرف...

وهكذا دواليك.. ثلاث مستشفيات تستقبل الطوارئ، ثم مستشفيات لم تكن تستقبل ليلتها، بحثٌ جديدٌ في المناطق التي يجول فيها بعد هذه وتلك، ولا أثر لعم عبد الفتاح...

(٣)

أسبوعٌ كاملٌ مرّ على اختفاء العجوز، لن أصف لكم مقدار الأسى الذي علا وجه سالم، ولن أخبركم عن الولولة والدموع التي فرقعت في بيته، كلها أشياء مفهومة..

ط وال الأسبوع طفتُ مع سالم نسأل كل من يعرف أباه، وبعد عناء استطعت إقناعه بتبليغ الشرطة، والبحث في أقسامها.. كان سالم – كأغلب المصريين في الواقع إن لم يكن كلهم – يخشى قسم الشرطة كما

يخشى الثعابين، والحق أن سمعة الشرطة في مصر تحتاج إلى اهتمامٍ غير قليل من لجانٍ حقوق الإنسان، قديمًا قالوا إن الشرطة تحمي، لكن أن يخاف شعبٌ من شرطيه ولصه؟!.. كأنه شعبٌ حُكم عليه بالمؤبد وهو مظلوم، لا سجانه يرحمه، ولا المساجين يعتقونه..

أخيرًا اقتنع وبدأنا التوجه إلى الأقسام، نسأل هناك عن العم عبد الفتاح العجوز صاحب عربة الفول الصغيرة المكتوب عليها: (يا ناس يا شر كفاية قر) وكأن الناس ستحسده على النعيم الذي تجلبه له العربة.. قسمٌ، فآخر، ثم آخر.. ولا شيء يدل على عم عبد الفتاح.. قررنا العودة إلى بيت سالم نستريح قليلا قبل أن نبدأ جولة بحثٍ جديدة، وحين وصلنا وجدنا عم عبد الفتاح وسط تزاحمٍ من الناس يهنئونه بالعودة سالمًا...

(٤)

حتى الخميس السابع والعشرين من مارس، لم يلفظ عم عبد الفتاح حرفا واحدًا، قال لي سالم أنه دخل عليه ليلا فوجده يبكي بحرقة، ظل مرتميًا تحت قدميه يبكي هو الآخر ويقول:

- مالك يا بّا؟ قل لي بس إيه اللي حصل؟ احكي لي.. اشكي لي.. هو أنت عندك حد غيري تشكي له؟

ولم يكن عم عبد الفتاح يرد سوى بمزيد من الدموع، تلك الدموع التي فطرت قلبي أنا نفسي- حين رأيتها، ورأيت معها تلك النظرة المنكسرة الضعيفة المذلولة التي فقدت بريق الحياة.

أم سالم أنشأت تشعل البخور، وتقرأ سورة يس، وتحضر- جاراتها الخبيرات العليمات بهذه الشئون، زارٌ تلو الآخر، وعم عبد الفتاح منكسر النظرة، مربوط اللسان..

- طب العربية فين يا بّا؟ ضاعت؟ ده اللي مزعلك؟ في داهية.. المهم صحتك..

بالطبع أضاف عم عبد الفتاح همًا جديدًا لكتفي سالم، فصار أسود الذقن، مغبر الهيئة، حاولت الحديث معه بشتى الطرق، لكنيِ لم أستطع – ولي عذري في ذلك – أن أخفف عنه من حمله شيئا ولو يسيرا..

حتى جاء يوم الخميس السابع والعشرين من مارس، لتنقطع أخبار سالم عني أسبوعًا كاملا، وحين كنت أسأل أمه، كانت تولول دامعة العينين:

- الواد وأبوه ضاعوا مني يا عمار يا بني.. الواد وأبوه!.

(٥)

كنت في بيتي أعد بعض الأوراق استعدادًا للبعثة اللندنية، ودق جرس الباب، قمت لأجده سالم، لكنه سالم آخر غير صديقي الذي حلف بعبقريته دكتور عبد الرحمن، سالم قبيح، سالم مسعور، سالم على وشك الجنون، إن لم يكن قد جُن فعلا..

بعد محاولات فاشلة للترحيب به، أخرج من جيبه ورقة كُتب عليها بضعة كلمات لَم ألمحها، وأشار إلى الكمبيوتر فأفسحت له المجال.. صفحة الإنترنت الرئيسة، فموقع الفيديو العالمي (يو تيوب).. ثم كتب الكلمات التي في الورقة في مكان البحث، ليظهر له عدة فيديوهات اختار من يطابق العنوان، وفتحه...

سألته:

- ما هذا الفيديو؟

بصوتٍ لم أسمعه منه أبدًا أجاب:

- سترى..

انتظرت صامتا حتى انتهى الفيديو من التحميل، وعلى الفور ضغط سالم على زر التشغيل فانطلق الفيديو، تسابقه عيناي تتابعانه..

(٦)

مكانٌ كان.. به شيءٌ صُنع من خشبٍ بني، يشبه ما يستتر خلفه ا لناس ليغيروا ملابسهم في الحمامات العامة على الشواطئ، وهناك أيضًا كرسي أسود من الجلد يظهر طرفه في يسار الفيديو.. التصوير نفسه يبدو رديئا من الوهلة الأولى، بكاميرا هاتف محمول، ويد مهزوزة، ضاحكةٌ واثقة وليست مضطربة خائفة.. صوت الضحكات كان قويا واضحًا.. وتو سط المشهد عجوزٌ بدا لي مألوفا، لكن الكاميرا المهزوزة لم تجعلني أتيقن منه.. سمعت حامل الكاميرا – وعرفتُ ذلك من صوته العالي القريب – يقول لأحدٍ غير ظاهر:

- اضربه يللا..

وظهر في الكادر، رجلٌ ضخم يرتدي بذلة الشرطة السوداء، وسيجارةٌ مشتعلة تتدلى من بين شفتيه الغليظتين، اقترب من وجه العجوز بيده ورفعها عاليا فحمى العجوز وجهه بيده، لكن الضابط أشار له بإصبعه الأوسط إشارةً بذيئة، والمكان يضج بالضحك..

- اضربه يا مجدي.. يللا اضربه..

ضحك مجدي هذا ورفع يديه، وأنزل بهما يد العجوز من فوق وجهه وهو يقول في عنف:

- نزل إيدك جنبك..

العجوز خفض يديه وهو لا يدري أيرفعهما أم يخفضهما، ثم كفي الضابط مجدي هذا تستقران على خديّ الأول، قبل أن ترتفعا وتهويا باللطم الشديد.. صوت اللطم يعلو، والضحكات..

إشارةٌ أخرى بذيئة، ثم سبابٌ قبيح، وضحكات..

يخلعون للعجوز ثيابه قهراً.. وضحكات..

يقرب حامل الكاميرا الكادر من عورة العجوز وهم يدخلون بها عصا.. ولم تمت الضحكات..

بصقةٌ على وجه العجوز...

أنين..

والمزيد من الضحكات...

(٧)

وجهي كان أشد حمرةً من ثمرة الطماطم، بعدما أنهيت الفيديو.. لم أفهم أأنا مذهولٌ أم خائفٌ أم غاضبٌ مما رأيت.. لم أجد في نفسي- إلا سؤالا يخرج:

- عم عبد الفتاح؟!!

لم يجب ونظر لي نظرةً لا تحيد، ثم هزّ رأسه والدمع يكاد يخفي بؤبؤ عينيه عن عيني..

لم أعرف ماذا أقول، ولم أعرف كيف أقول، كأني وقتها نسيت الحروف كلها، وددت لو سألت: كيف تسرب هذا الفيديو؟ ولمَ صُور من أساسه؟ أي وحشية وسادية همجية هذه؟ وما الذي فعله هذا (العجوز) صاحب عربة الفول ليستحق كل هذا؟!.. لكني أدركت أن أسئلتي هذه لن تزيد الطين إلا بلا فوأدتها، وساد صمتٌ مخيف، صمتٌ له مذاقٌ مالح كالدموع، صمتٌ له صديد كالدماء، صمتٌ لم أستطع أن أغتاله إلا بعد ساعتين كاملتين...

(٨)

- سالم أخبرني ما الذي نويته؟

- الانتقام..

- حسنا.. هذا حقك الكامل التام، ولو كنت مكانك لما فكرتُ في شيء آخر.. لكن كيف ستفعل؟ هذا هو السؤال..

- .....

- سالم أرجوك.. إن صمتك يخيفني.. أتعرف؟ لقد ظهر وجه هذا الضابط كاملا ونستطيع أن نخرجه من بين مليون.. وحتى اسمه عرفناه.. لو عم عبد الفتاح أخبرنا باسم القسم الذي كان محتجزاً فيه لاستطعنا الوصول إلى هذا الضابط الهمجي، وجلبنا لأبيك حقه بالقانون..

- (ابتسامةٌ ساخرة)

- صدقني.. أبي يعرف الكثير من المحامين البارعين، وحتى رجال الشرطة المحترمين.. وهؤ لاء جميعًا لن يرضيهم ما رأيناه.. صدقني لا زال هناك شرفاءَ في هذا الوطن..

- أتحلم؟ أم تمزح؟ بالتأكيد تمزح.. أين كان هؤلاء الشرفاء حين حدث ما حدث؟ إن هذه البلد لا مكان فيها لمن هم مثلنا.. لا مكان فيها إلا لمن هم مثلك.. لمن يعرف آباؤهم الكثير من المحامين، ورجال الشرطة والمستشارين.. ولا تحدثني عن الوطن، فتلك الكلمة لم تعد إلا حروفا، رحلت معانيها مع أحلامي التي قُتلت غدراً بيد هذا المدعو: وطن.. ولا تحدثني عن القانون، فما هو إلا كلمتان: البقاء للأقوى.. للأغنى.. للأعلى سلطة.. هذا هو القانون الذي يسير.. أما الانتماء فهو صديدٌ كان يجثم فوق قلبي، يفرمل دقاته، فنزفته عن عمد.. أما

الكرامة، أما الحرية، أما العدل فهي أشياءٌ كنا نسمع عنها في بلاد قديمة، حين كانت بلادنا ملكنا.. لكن هذه ليست بلادنا.. بلادنا احتلوها وقضوا عليها.. إننا غرباءَ هنا.. غرباءَ رغم تزاحمنا.. غرباءَ حتى لا نملك حق اختيار الغربة في مكانٍ آخر لعله يكون أفضل.. غرباءَ وسط قطيع من اللصوص، بلا مأوى أو سلاح.. لا نملك إلا هذه (ورفع قبضته جوار وجهه)..

- لو أن كل واحد ظُلم أو قُهر أخذ حقه بيده لما بقينا.. لم توضع القوانين لنخالفها.. لم تُوضع لتهيننا.. وضعت لتحمينا..

- أية قوانين؟ القوانين التي رأيتها بأم عينك في الفيديو؟ لا قانون يا صاحبي.. لا قانون.. إن الفوضى هي اسم اللعبة.. لعبةٌ قاعدتها الوحيدة هي الهمجية.. ونردها الافتراس..

- حتى الغابة لها قانون.. لكننا لسنا في غابةٍ يا سالم..

نظر لي مليًا ثم أجاب:

- ولسنا – كذلك – في المدينة الفاضلة...

(٩)

في يوم الاثنين التاسع من إبريل وقفت جوار عم عبد الفتاح آخذ عزاء سالم ولده وصاحبي، كان الرجل يقف شامخا، مبتسمًا، وكلما قال له أحدهم: شد حيلك.. نظر له كمجنون، وقال:

- ابني جاب لي حقي.. ابني رجل.. ابني مماتش..

ويظل يرددها كأنه لن ينتهي، شعرتُ أن لسانه عاد إليه، حين أتيته بخبر وفاة ابنه، واضحٌ تمامًا أنه كان يعرف ما سيَقدْم عليه سالم..

لولا أن أبي كان يعرف طبيبًا شرعيًا كبيرًا، لما عرفتُ أن سالم حدث له ما حدث، ما قاله العساكر أنهم فوجئوا بكتلة بشرية من النيران تمسك بيدها جركن، تندفع نحو الضابط مجدي فتحتضنه بقوة مفاجئة فور نزوله من سيارة الشرطة، وتسكب من الجركن فوقه، والذي اتضح أنه كان يحوي بنزين، وانتفض العساكر وأفرغوا رصاصتهم الحية كلها في جسد سالم، لكن ذلك لم يمنع صرخات الضابط مجدي المتألمة وهو يحترق حيا، وحين وصلت النجدة والإسعاف كان قد انتهي كل شيء..

لكني واثقٌ أن سالم لم يتألم قدر ما كان سعيدًا.. هل ظل يراقب الضابط مجدي؟ كيف وصل إليه؟ كلها ألغاز كانت إجاباتها - بعد مقتله - عند عم عبد الفتاح وحده.. عم عبد الفتاح الذي جاءه أناسٌ مخيفون في ثيابٍ مدنية ليخبروه أن مجرد حديثه فيما حدث له أو لابنه يعرض بناته لنفس ما ذاقه.. عم عبد الفتاح الذي أصر أن يوزع (شربات) في العزاء!.. بدا لي - ولكل الناس - هذا التصرف جنونا صريحًا، ذهبت إليه ووشوشته أن هذه التصرفات تسيء إليه وإلى ولده، فنظر لي في حدة، وقال:

- فرحان بابني.. ابني جاب لي حقي.. ابني رجل.. ابني مماتش.. فاهم؟.. ابني مماتش..

وظل يرددها حتى فقد الوعي، فحملته مع أولاد الحلال الواقفين إلى بيته، ونزلت لأستكمل العزاء، وحين انتهيت صعدت لأطمئن عليه، فوجدته وزوجته - التي لم تجف دموعها - جالسين يطالعون نشرة الأخبار، التي تزف خبرًا عن مقتل ضابط شرطة يُدعى مجدي، ذلك الضابط الذي راح ضحية الواجب، وقد قتله شابٌ متطرفٌ مشكوك في حالته النفسية، قيل أنه مدمنٌ للهروين، على كلٍ لقد قامت الجنازة بعد صلاة المغرب من الجامع الكبير وقد حضر الجنازة مدير الأمن،

والمحافظ، وغيرهم من القيادا ت، وقد لُف الشهيد بعلم مصر، مما جعل أناسًا كثر ينضمون إلى الجنازة، وقد ردد الناس أثناء ذلك بصوتٍ عالٍ:

- لقد راح الشهيد.. راح الشهيد..

وفور سماعه لتلك الكلمات، سقط عم عبد الفتاح بين يـديّ متسـع العينين، فاقد النطق، وقد فارقته الروح، وصرخت امرأته صرخـةً مدويـة اخترقت الجدران والزمـان كأنهـا سـتمتد إلى الأبـد، لكنهـا رغـم ذلـك لم تنجح في إخفاء صوت المذيع الذي ظل يردد:

- راح الشهيد.. راح الشهيد.. راح الشهيد...

(إبريل ٢٠١٠)

شاخير وكارع

شاخير وكارع

يتحدثون عن سحبٍ بركانية تغزو سماء العالم، يقولون إنها قد ترسل أحجاراً ا، وقد ترسل حممًا مغلية، يشبهونها بأزمة الاقتصاد العالمية، يتهامسون.. إن الرب يحمينا يا إخوان.. فلنستمر..

وشاخير له أذنان، لذا سمع حديثهم وهمسهم، وله - كذلك - لسان، لكنه - رغم ذلك - لم يشاركهم الهمسات، ظل واقفا في شمس الظهيرة الحارة، يرفع معوله الضخم إلى أقصى امتداد تصل إليه ذراعاه، قبل أن ينزل به بقوة فيشج الأرض.

قال كارع - وهو يستند إلى الرافعة الضخمة - :

- سمعتُ أن تلك السحابة قادمة نحونا.. أتحسبونها ستؤذينا؟

- هي هي.. أحمقٌ أنت يا كارع كأمكَ!.. كح.. كح.. تفو!.. إنها تحمينا بالفعل.. ألم ينشغلوا بها ونسوا أمرنا تَماما؟

- أعرف.. لكن ليس هذا ما نريده أليس كذلك؟

- بلى.. لكن انظر للجانب المنير من القمر.. يمكننا اختصار الجدول الزمني للهدم شهرًا كاملا بسبب تلك السحابة.

ثم نظر إلى السماء في افتتان وقال:

- أليس هذا رائعا؟!

فأومأ (كارع) برأسه مبتسما أن بلى.

***

حين يهطل المساء بلونيه الأزرق والأحمر، يرتجف شاخير. متطلعًا من بصيص تمنحه الستارة إلى النافذة يرمق الأفق بعينيه وأذنه، السماء الملونة باللون البرتقالي الأحمر، لا يدري لمَ يتخيله دومًا لونا للغضب، يستمع إلى الصرخات، العويل، سيارات الإسعاف تنطلق هنا وهناك، تعوي كالنعاج المذبوحة.

الليل اللعين. كم يكرهه!.

في النهار، يظل يضرب الأرض كي تصرخ، وهو يشقها بفأسه، صرخاتها تُشعره بالنشوة، تُنسيه الصراخ الذي حوله، ذلك الصراخ الذي يحاول أن ينكر صلته به.

حتى بالنهار، تئن سيارات الإسعاف، وتغضب السماء، لكن أيهما أهون؟ أن ترى الثعبان وهو يتسحب ليلدغك؟ أم فقط تستشعر لدغته فجأة؟

دائمًا فضّل أن يرى الثعبان، حتى إن لم يكن يملك الشجاعة كي يقتله.

يسمع جلبةً من خلفه، هذه زوجته تحمل ولديهما، واحدا على ذراعها، والثاني في أحشائها، يقتل البصيص بإعادة الستارة مكانها. عن زوجته يحمل الطفل النائم، ويرفعه إلى فمه ليقبله.

لهذا السبب يعمل. خدعوا أباه حين أقنعوه أنها الجنة، وهو لن يخدع ابنه، وكيف يخدعه؟ إن الدمار حوله يتحدث عن نفسه، وهم –

من يسببون الدمار، والـذين يخشى- نطـق اسـمهم - لـن يهـدؤوا حتـى يفنوه هو وولده وقومه جميعا.

لكم يخشى عليه من مستقبلٍ مظلم!. أتراك حين تكبر - يا ولـدي - ستجد الحلم قد تحقق؟!

تُرى، أتفتخر بي وتقول: شارك أبي في الهدم، حتى اكتمل البناء؟! أم تفتخـر بي لأني أنزل في تلك المظاهرات التي تندد بممارسات جيشنا ضد العزل؟!

أم أنك ستلعنني لأني لم أسرع في الهدم؟! أو ربما تلعنني لمشاركتي فيه؟!

ولدي.. صدقني.. هذا ليس بيدي.. إنها أوامرهم، وهم يعلمون ماذا يفعلون حـين يجـب أن يفعلـوا!. صـدقني.. يومـا سـتكبر، وتـدرك أنهـم خدعوا أباك كما خدعوا أباه.

***

في الصباح يستقل شاخير الميكروباص المخصص لعـمال الهـدم، كـان الميكروباص يمر في أنحـاء المدينـة العريقـة، ويأخـذ فيهـا وقتـا وتفتيشـا طويلا وكثيرا، وأحيانا كانوا يعودون إلى بيوتهم لأسبابٍ أمنية، كان شاخير يقضي ذلك الوقت الطويل في تذكر أبيه، ويظل يلومه ويعاتبه كأنما يراه أمامه، لا يخرجه من عتابه اليـومي لأبيـه؛ أصـوات كـارع الصـاخبة هـو وباقي العمال وهم يضحكون ضحكات مجلجلة، ويلقـون نكـاتٍ بذيئـة عن نساء الذين يخشى نطق اسمهم.

أثناء الطريق دائمًا ما كان يرى الجنـود وهـم متمنطقـون بالأسـلحة والعتاد والقنابل، وخوذاتهم فـوق رؤوسـهم ودروعهـم الشـفافة في يـدٍ، والرشاشات في الأخرى، ورآهم ذات يوم وهم يمسكون برجلٍ هرمٍ محني الظهر، فيلصقونه بالحائط في عنف، وهم يفتشونه وقد انتصبوا وتـوتروا كقـطٍ خـائف، ورفعـوا أسـلحتهم نحـوه متحفـزين، والعجـوز بالكـاد

يستطيع الوقوف، وحين تأكدوا من أنه نظيف وخالٍ من السلاح؛ انهالوا عليه ضرباً بكعوب بنادقهم، وخلعوا له عقاله وألقوه وإياه على الأرض، وداسوا على وجهه بأحذيتهم الثقيلة، وهم يخرجون هواتفهم المحمولة ويصورون ويضحكون.

أو كان يرى الجنود وهم يمسكون بسيدة تلف رأسها بحجاب، وتمسك بيدها طفلا صغيرا، فيقطعون لها ثيابها ويغتصبونها في عرض الطريق، وحين يدافع عنها ولدها الصغير يتدافعون عليه ضرباً، ثم يلقونه في عربة تذهب به إلى محرقة كبيرة.

هذا اليوم رأى الجنود وهم يمسكون بفتاة صغيرة كانت تحمل طفلا رضيعا، وقد تسبب ذلك في جعل الميكروباص الخاص بالعمال يتوقف، لأن الجنود شكوا أن الفتاة ملغمة، وإرهابية من الذين يخشى نطق اسمهم، أخذ العمال يرتعشون وقد استشرى القلق كالسرطان في الجسد، وما إن تأكد الجنود من أن الفتاة نظيفة حتى أخذوا يصفعونها ويمزقون فستانها الرمادي البالي، وآخرون أخذوا منها الرضيع وهم يرفعونه لأعلى ويتركونه ليسقط على الأرض، فتنفس العمال الصعداء ونزلوا ليشاركوهم، وأمسك كارع بالرضيع من قدميه وأخذ يضرب رأسه في الحائط، ثم أخذوا سكينا وذبحوا الطفل أمام أعين أخته الصغيرة، وقد صارت عارية والدم يسيل من كل جسدها، وأخذوا يقطعونه أجزاءً في غلٍ، ثم تناول كارع رأسه الصغيرة، وأشار بها نحو الفتاة وهو يقول لها والمقت يقطر من لهجته وعينيه: هذا هو.. أتفهمين؟! العربي الجيد هو العربي الميت.

ثم صفعها على وجهها وأخذ سكينا من الجنود، فقال أحد العمال: حنانيك يا كارع، ربما جرحت إصبعك. فضحكوا وضحك كارع، لكنه أمسك بثديي الفتاة الصغيرين، وقطعهما بالسكين، ثم بصق عليها وعاد

إلى الميكروباص هـو وزمـلاؤه، وتعالـت ضـحكاتهم وهـم يقولـون أنهـم يتمنون أن يمروا من عند نقطة التفتيش هذه كل يوم، لكي يقتلوا عربيا.

كل ذلك وشاخير في مكانه في الميكروباص، يرتجف وهـو يلعـن أبـاه ألف مرة، وحين سأله كارع عما به، ظل صامتا، فقال كارع وهو يضـحك: لا تتضايق في المرة القادمة سأترك لك الأثداء.

فضحكوا جميعا، لكن شاخير بكى.

***

عملية جديـدة ناجحـة للمقاومـة، حيـث سـقط صـاروخ مـن نـوع (قسام ٦) على شاحنة تنقل العـمال الـذين يشـاركون في هـدم المسـجد الأقصى، وقد سقط الصاروخ على الشاحنة مباشرةً، وهـي في طريقهـا إلى المسجد الطاهر، ولم ينجُ من راكبيها أحد.

(إبريل ٢٠١٠)

أنا لستُ بكرًا

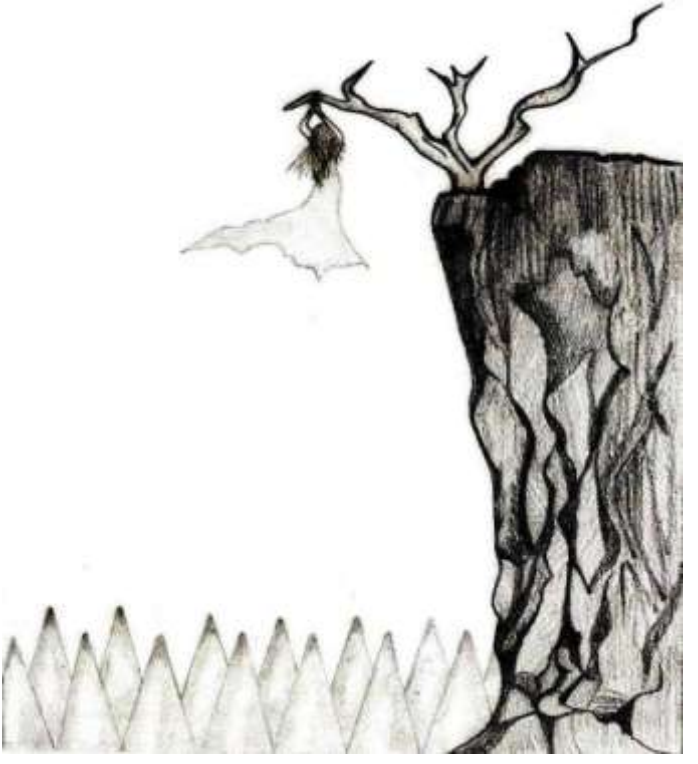

أنا لستُ بكرًا

بعض الأشياء حين أخبرته أنها تحبها وتفعلها قال إنه أراد أن يجدها في حبيبته. أحَلمَ بهذه الأشياء حقا أم لم يفعل؟ لم يهتم. كل ما دار بخياله هي تلك اللحظات التي سيمارسان فيها هذه الأشياء معا.

عرف أنها تحب قرض الشعر، فحلم وهو يدخل إليها بيتهما الصغير حاملا باقة الورد الأحمر الصغيرة يقول لها:

(قتل الورد نفسه حسدًا منكِ ... وألقى دماه في وجنتيكِ)

لا يعلم إن كان هذا شعرًا أصلا، لكنه صار يعجبه. علمته أن يحب أشياءَ لم يكن يحبها، صار يحب حليم وأم كلثوم، يستمتع بنزار القباني، وينتشي مع كاظم. هو الذي كان يتهكم على كل هؤلاء!.. علمني حبكِ أسوأ عاداتي سيدتي..

حتى حين أخبرته أنها تهوى ركوب الدراجات تذكر دراجته الزرقاء التي ينخرها التراب فوق سطح بيتهم منذ سنين طوال، وهرب منه

خياله ليستكين في حديقة خضراء يافعة شاسعة بلا حدود، يتسابقان فيها معا وكلاهما يركب دراجته ويضحكان.

لم يتوقع كل هذا. وكيف كان له أن يفعل حين أتته أمه بصورتها المبتسمة؟

يعمل في بنك. ثلاثون عامًا مروا عليه في الدنيا ليكتشف أنه قد حان الوقت ليصير أبًا. التنين المخيف الذي يحول بينه وبين الأميرة قد تكفل به راتبه مع الحوافز مع بعض المساعدات من أبيه، شقةٌ صغيرةٌ في ذلك الحي الهادئ الراقي نسبيا. الآن صار فارسًا يحلم به. كذا كان يفكر، وأمه تعرض عليه...

- ابنة صديقتي نوال مثل القمر وبسم الله ما شاء الله تشتغل في شركة دعاية وإعلان ومرتبها ممتاز..

- ماذا عن بنت عمك صالح؟ هؤلاء أناس لا يُعابوا، وعمك صالح صاحب أبيك من زمن وأنت تعرف محمد أخاها وأمها حبيبتي.. والبنت أخلاق وذوق وحلاوة..

- طيب ما رأيك في هذه؟! لا تقل: بم.. هذه نقاوة أمك..

رأي الصورة فوافق على لقاء عائلي. ابنك هو ابني وابنتك هي ابنتي. معارف مشتركون. العائلتان لا يتخيران عن بعض. ما تأمر به العروسة سيكون تحت قدميها. الأمر لله نحن نشتري رجلا. حصل لنا الشرف. يشرف مقداركم، نحن من زارنا النبي...

الفاتحة....

آآآآآمين.

***

متى اقتحم مذكراتها؟ أيوم ارتدائها الدبلة التي تحمل اسمه، وارتدائه الدبلة التي تحمل اسمها؟ أم يوم قرأوا الفاتحة؟ ربما قبل ذلك بكثير.. ممكن في المرحلة الإعدادية حين بدأت تسجيل مذكراتها؟ ساعتها كانت تكتب عن فتى أحلامها الوسيم الذي سيأتي محطمًا كل شيء كي يحظى بها. لا تعرف إن كان هو فتاها حقا، لكنها تحبه. له طريقة تضحكها وهو يحاول أن يبدو لطيفا ويقول كلامًا رومانسيًا، لكنه رغم طريقته المضحكة يأسرها بكلماته التي يسربها إلى أذنيها همسًا، وفي عينيه ترى سعادة من وجد شيئا بحث عنه طويلا.

هو الوحيد الذي استطاع أن ينتزعها من صمتها الطويل مع الناس، وطيها لنفسها على نفسها. في البداية قالوا أنها (هادية ما شاء الله) واعتبروا هدوءها علامة أدبها، كانت ترمقه بحذر وهو يتطلع إليها بملء عينيه.

متى بدأت تراودها هواجسها بعدما تناستها؟ ربما حكاوي صاحباتها هي ما ذكَّرها. ومن قال إنها نست؟ وكيف تنسى؟!

عامها الثاني عشر.. الحديقة الكبيرة ودراجتها الصغيرة والكثير من الضحك.. تسابق الفراشات بدراجتها، تسبقهم بضحكاتها وأنفاسها اللاهثة المتقطعة.. تسابق سرب عصافير يزقزق، تتطلع إلى السماء تتابعه بعينيها.. تضطرب الأرض تحت دراجتها، لا تستوي.. فترتفع وتهبط سريعا على مقعدها قبل أن تسقط هي ودراجتها على الأرض المليئة بأحجار كثيفة، وجرحٌ أصاب مرفقها الأيسر وآخرَ أدمى ركبتها اليسرى وثالثٌ أفصح عن نفسه ببقعة دمٍ بين فخذيها برزت على (الشورت) الأبيض الصغير..

بكت من (الخضة)، ومن منظر الجلد المتهرئ عند مرفقها وركبتها بسبب الاحتكاك بالأرض الصلدة، كتمت آلامها، لو عرف أبوها سيعاقبها وربما يحرمها من ركوب الدراجة مرةً أخرى، عادت إلى البيت تسللت إلى الحمام، فخلعت ملابسها واغتسلت..

في اليوم التالي جاءتها أمها في غرفتها، سألتها متى خلعت ملابسها الداخلية تلك، وكانت تمسك بلباسها الداخلي وبقعة الدم من أثر إصابة الأمس قد تجمدت عليه، ارتبكت وامتقع وجهها واحمّر..

- أصل يا ماما.. امبارح..

ابتسمت أمها..

- خلعتيه امبارح؟!

هزت رأسها وهي لا تعرف ماذا تقول، ضحكت أمها وقبلتها وهي تقول لها إنها خلاص قد كبرت وصارت آنسة، ويجب أن تعرف أنها لم تعد صغيرة بعد الآن، فمن الآن لا ركوب للدراجة، ولا نزول للحديقة من أصله إلا وهي أو أبوها معها، لم تكن تفهم شيئا، فازداد توترها، لكنها أومأت برأسها كثيراً لتنجو من هذا الموقف بسرعة.

مرت ثلاثة شهور لم يصبها فيهم سوى نظرات أمها كل شهر تستفهم، لكنها لم تكن تعرف كيف ترد على عينيها المستفهمتين، لأنها أصلا لا تعرف السؤال.

- هو مفيش؟!

تسألها أمها فترمق الأرض لا تعرف كيف ترد، فتهز الأم رأسها وتبتسم وتقول أن الأيام تجري بسرعة والصغير يكبر.

وفي نهاية الشهر الثالث أصابها الطمث، وصاحباتها في المدرسة علمنها كيف تتعامل معه، وهن يضحكن في خبث، وواحدة تقول إنه أصابها منذ عامٍ كامل، وأنها تعلمت كل شيء بنفسها..

تعلمت منهن كل شيء، أما أمها فكانت حين تسألها، تجيب إن هذا الكلام عيب، ثم تأمرها بالسكوت وألا تفتح مثل هذه المواضيع القليلة الأدب مرةً أخرى!.

***

وأنا الذي كنت أسخر من زواج الصالونات!.

لم يغادر الكلام عقله إلى لسانه، وهو يقف مبتسمًا يشتري كيلوين من البسبوسة بالبندق وكيلو كنافة بالكريمة.

- لو سمحت.. كل كيلو لوحده.

أومأ البائع. تحب هي البسبوسة، لذا أحضر كيلو مخصوص لها. ستتحجج بالرجيم وأن البسبوسة ستجعلها تسمن، لكنه سيصر وسيحلف ألا يأكل من الكيلو أحدٌ آخر. سيقول لها إن جسدها رائع، و(عود)، مضبوط بالشعرة، لن يقول لها بالطبع إن فخذيها من الحجم الذي يفضله، ولا إن نهديها من الحجم الذي يثيره، هذه أشياء لا تُقال في الخطوبة. لكنه يراها مثالية يحب دائمًا أن يقول ذلك بالانجليزية: أنتِ Perfect!.

كانت تضحك في حياء حين يخبرها بذلك، حينما تقول إنها انتهت من الأكل.. يسألها ولماذا الرجيم؟ تغمغم بأشياء لا معنى لها فيقول مندفعًا: أنتِ Perfect!.

حين تقول إنها تشعر بأنها تحتاج أن تقص شعرها قليلا، يهز رأسه بقوة ويردد: أنتِ Perfect!.

صارت تتعمد أحيانا أن تقول أشياءَ ليست فيها، كي تسمع منه هذه الكلمة، ولم يكن يبخل بها، هكذا كان يشعر.. يحمد الله أنه لم يعمل بكلمات أخته أن الحب هو أساس الزواج والأمر ليس بصورة تراها فتعجبك، الزواج لعبة نفسية، يجب أن تعرف طباعها أولا وتعرف طباعك..

يضحك وهو يقول لها إنها لن ترفع عليه قضية خلع فيما بعد لو اكتشفت أنه يقرض أظافره بأسنانه أو يحب تناول الطعام على السرير.

تضم حاجبيها وتقول إن هذا واردٌ جدًا. ولهذا يحدث الطلاق كثيراً بين الشباب. أشياءٌ بسيطةٌ مثل هذه تجعل الواحد منهما يفكر هل أخطأت؟! تتراكم الأشياء حتى يكون الطلاق.. يضحك ضحكة مفتعلة كأنما وترته كلماتها ويقول وهو يشيح بوجهه ويلوح بيده دون معنى أن هذا كلام أفلام.

حتى الآن أثبت أن كلامه صحيحًا. رأى صورتها. أعجبته. تعرف عليها. أحبها.. ألا يقولون إن أولى مراحل الحب الإعجاب؟ حسنا هو يأخذ المراحل كما في الكتب!.

في النهاية هو وأخته يلتقيان فهو أحبها وصار سعيدًا دائمًا، وشعر أن الحياة ستستقيم أخيراً، لكن الحياة تصر على الانحناء والتلوي، ويأتيه هاتفٌ منها بالأمس قالت فيه أن أصابها اكتئابٌ ما، وإنها تريده أن يأتي ليزورها كي يرى ماذا أصابها لعلها تتحدث معه هو طالما لا تريد محادثة أحدهم.

شعر بنشوة بالغة، هي تطلبه هو لتحادثه دون أهلها جميعًا..

تبًا لكِ يا أختي!.

***

حين رن الجرس لم يكونوا يتوقعون مجيئه، أصابهم هرج ومرج واندفعوا يعدون في كل مكان، أيديهم انطلقت كأفلام الكرتون تتحرك في كل الاتجاهات تحمل كل الملابس الملقاة في الصالون، والأم تسب أولادها الذين يعتبرون الصالون غرفة نومهم ويلقون فيه ثيابهم، استغرق منهم الأمر ثلاث دقائق توتر فيهم هو على الباب وفكر أن يعود أدراجه، لكن الباب فُتح والأم تضع حول رأسها إيشارب لم تلفه بعد وضمته أسفل ذقنها بإصبعيها، وهي تتمتم: إيه النور ده؟ تفضل تفضل..

ألقى السلام واعتذر أنه لم يأتِ عن موعد، ثم أدخلته الصالون واستأذنته تنادي على حميه. بعد قليل جاء الرجل ورحب به..

- أين (...) يا عمي؟

- في غرفتها يا بني.. مريضة، حبة برد.. أنت تعرف البنات ودلعهم.

تكلما قليلا في أشياء غير مهمة، ثم استأذن الضيف أن يرى خطيبته، أومأ أبوها وخرج.

سمع الضيف بعض الهمس، الذي يحاول ألا يرتفع. بعض الجلبة، ثم صمت.. جاءه الأب وقال إنها نائمة لن تستطيع الخروج للأسف.. أجابه في صلف: - ينفع أدخل أشوفها؟

- لكن أقول لك نائمة..

- لا مشكلة، سأطمئن عليها وأنزل..

حار الأب قليلا ثم قال: حسنا.. انتظر لحظة..

بعد قليل أدخلوه إلى غرفتها، كانت متكئة على السرير، رأسها وأول ظهرها يستندان على مخدة أوقفوها طوليًا خلفها.. وعلى رأسها تهدل إيشارب ألقي عليها إلقاءً..

وقفت أمها معهما للحظة فقال لها: بعد إذنك يا طنط ممكن تحضري علبة زرقاء من اللتين في الخارج.

أومأت وخرجت تاركةً الباب مفتوحًا..

جلس جوارها على طرف السرير، وتأملها قليلا قبل أن يسألها عن حالها، وما الذي أصابها بعد الشر. لم ترد ولمعت الدموع في عينيها، وبدا أنها لا تجد دموعًا تبكيها، فسألها أكانت تبكي قبل أن يأتي؟ سكتت.. جاءت أمها، أعطته علبة البسبوسة فقال ضاحكا أنه أحضر لها كيلو

بحاله كي يدمر لها الرجيم وتصبح مثل الدبدوب الذي أحضره لها في عيد الحب.. ود لو ضحكت، لكنها لدهشته بكت بكاءً شديدًا، ثم حاولت أن تقوم فأمسكها وهو يبسمل ويحوقل، ويهدئ من روعها، حاول أن يجعلها تخبره بما يؤذيها لهذه الدرجة، نظرت إلى أمها ولم تتكلم، نظر هو إلى أمها أيضا ثم استأذنها في كوب شاي.. فهمت الأم وإن بدا عليها الضيق، ثم غادرت وهي تصرخ في ابنها الصغير دون سبب وتلومه على أشياء لم يرتكبها أحد..

هدأت الأصوات وهدأ بكاؤها وهو يغمغم بكلمات على غرار اهدئي، وخير إن شاء الله.. قالت وقد حسمت أمرها: - أنا أردت أن أقول لك من البداية، لكن.. لكن.. لكن خفت.. أنا خائفة جدا..

ربت على يدها وهو يقول: - لا حول ولا قوة إلا بالله.. ما الذي يخيفك كفى الله الشر..

ثم حاول أن يطمئنها وردد: - أهناك من تخاف وخطيبها بجانبها؟!.. أنا جانبك.. وطوال عمري لن أتركك.. لا تخافي واحكي لي ما بكِ.

نظرت له وقالت: - أحقا؟

في غير فهم تساءل: - ماذا؟!

- لن تتركني طوال عمرك؟

- لا أستطيع الاستغناء عنكِ أصلا يا حمقاء..

سكتت قليلا.. فاندفع: - أهذا ما يخيفك؟! أني قد أتركك يومًا؟!

لم ترد لهنيهة ثم قالت: - أصل.. أصل لو عرفت..... لكن أنت لازم تكون عارف..

- أخبريني ماذا هناك أقلقتني.

- أصل.. أصل وأنا صغيرة كان حصل لي موقف.. كنت راكبة دراجتي.. ثم.. ثم وقعت.. وكان هناك دم..

ضحك.. أكملت وقد احمر وجهها:

- سمعت صاحباتي يحكين.. وأنا كنت خائفة فحكيت لهن.. قالوا لي لابد تكشفي، فرحت كشفت من يومين..

شعر أن الأمر لا هزل فيه فقال: - علام كشفتِ؟

لم ترد واحمر وجهها أكثر، ثم أخرجت ورقة مطوية من أسفل وسادتها وناولته إياها وجرت إلى الحمام، لم يفهم شيئا.. ففض الورقة ليقرأها:

" بعد الكشف على (.....) ٢٣ سنة.. وجدتُ أن غشاء البكارة مشقوق شقا طوليا لم يسببه جماع رجل وإنما حدث بسبب ركوب دراجة أو سقوط عنيف أدي لجرح منطقة الحوض، ورغم أن سبب الشق حدث منذ زمنٍ بعيد وهو ما يظهر في الأجزاءِ التي التأمت من الشق، إلا أن الغشاء لم يلتئم كله وبقى الشق واضحًا للعين، وعليه فإنه في أغلب الأمر لن ينزل دمٌ في ليلة الجماع الأولى..

وهذه شهادةٌ مني بذلك..

دكتورة / فلانة الفلاني."

وحين خرجتْ من الحمام كان قد غادر.

***

عاد إلى بيته مهمومًا.

أغلق عليه حجرته، انتبهت له أخته فطرقت على باب الحجرة ودخلت، بدا على وجهه الهموم فجلست أمامه تسأله:

- هل تشاجرتما؟

هزّ رأسه أن لا فقالت: - ما بك إذا؟

لم يرد وقام من فوق السرير يتطلع إلى النافذة، أثناء قيامه سقطت من جيبه الورقة، أخذتها أخته دون أن يشعر وقرأتها..

- أهذه هي التي تضايقك؟ قالتها وهي تلوح بالورقة.

لم يلتفت لها فقالت: - بعد الكشف على (....) ٢٣ سنة... وجدتُ أن..

اندفع نحوها وحاول أن يشد منها الورقة: - كيف وصلت ليدك هذه؟ هاتها..

رفعت يدها في الهواء وهي تقول: أجبني أولا.. أهذه ما يضايقك؟

أخذ يسبها وأصابه غضب شديد، جاءت أمهما على الجلبة فتساءلت: - ماذا هناك؟ عيب أنتما كبرتما.. لم يرد، وأخفت أخته الورقة خلف ظهرها بيدها، فقالت الأم: - ماذا تخفين؟

- لا شيء.

لم تحاول ا لأم الاقتراب ثم قالت: سأحضِّر العشاء..

لما غادرت ذهب هو ليغلق باب الحجرة جيدًا وراءها ثم التفت لأخته فوجدها قد قطعت الورقة إلى ألف قطعة وألقتها من النافذة ثم نفضت كفيها أمامه.. نظر إليها مذعوراً.. وجرى إلى النافذة وكأنما سيقفز منها كي يلم كل الأوراق التي ترفرف إلى اللامكان..

قال: - أيتها المجنونة لـــ..

قاطعته: - ماذا؟ أمزقت دليل شرف خطيبتك؟

لم يرد..

- ألم يكن يمكن أن أكون أنا مكانها؟ أكنت ستفكر أني غير شريفة؟ على الأقل هي كانت صادقة معك ولم تشأ أن تخدعك وأخبرتك.. كان يمكنها أن تتحايل بألف طريقة، كان يمكنها حتى ترقيع غشائها.. وكنتَ أنتَ سترى دمًا فتفرح ببلاهةٍ وتتأكد من شرفها.. أنت لا تعرف النساء!.

- أتقصدين أن من ليسوا بكرًا دون أن يتزوجوا شرفاء يا محترمة؟!

- بالطبع ليس كلهم.. هناك من هناك.. لكنكَ خطيبها من ستة أشهر، ما الذي رأيته عليها لتحتاج إلى ميثاق يثبت شرفها؟! أنتم الرجال تضعون للمرأة مقياسا متخلفا مثلكم.. إن لم ينزل دم فهي خائنة وليست شريفة، إن لم تكن بكرًا فهي فتاة ملعب.. وأنتم؟ ما دليل شرفكم؟

- نحن رجال!.

- يا فرحتي!.. ما الدليل الذي يجعلها تثق أنك لم تذهب إلى بيت مشبوه؟ وما الدليل الذي يجعلها تثق أنك لم تزنِ بامرأة غيرها قبل أن تتزوجها؟!

- لكني لم أفعل أي شيء من ذلك.

- وما الدليل؟ هي لم تفعل شيئا كذلك لكنها مجبرة وملزمة أن تأتي بورقةٍ يمضي عليها مائة طبيب كي تثبت أنها لم تفعل! حتى بعد الزواج.. الزوج حين يخون.. لا مشكلة هو رجل ومن حقه، أما المرأة فيعلقون لها ألف مشنقة..

احتد قائلا: - كلام جمعيات حقوق المرأة هذا!.

كأنما لم تسمع كلامه أكملت: - لو كنت أحببتها حقا لكنت واثقا من براءتها دون أن تأتي لكَ بشهادة طبيبة. تقيسون الشرف بغشاء ونسيتم أن الشرف الحقيقي يكمن هنا.. في الصدور.

التقطت أنفاسها ثم قالت: - فكر قليلا قبل أن تتخذ قرار، فأنا أخشى عليكَ من الندم.

***

ظل منطوياً لأيام يفكر..

لم يحاول الاتصال بها، ولم تفعل هي.

أهذه التي أحببتها؟ أهذه التي خرجنا معًا فركبنا مركبًا في النيل وكدنا نغرق ونحن نضحك؟ أهذه البريئة التي كنت أتطلع إلى عينيها فأكاد أشعر أني سكرتُ؟ كفى!..

وما الذي فعلته هذه البريئة؟ لم تفعل شيئا. يمكنني أن أسأل الطبيبة بنفسي. نعم هي بريئة، لا يمكن لتلك الضحكة الصافية التي يرتج لها قلبي فرحًا، أن تكون ضحكةً رقيعة يومًا.

لكن ما الذي يمنع أن تكون قد اتفقت مع الطبيبة؟ آخذها إلى طبيبٍ آخر؟ لكن أأفضح نفسي؟! ثم ما الذي يمنع ألا يكون الشق بسبب عملية الجماع، لكنه كذلك بسبب رجل؟! ألا يمكن للرجل أن يُفقد امرأةً عذريتها بإصبعه فقط؟! أنسيتَ؟! لكنها حكاية قديمة ولم تفقدها حتى عذريتها!.. لكن اعترف: أنتَ حاولت!.. هناك في ظل الشجرة المورقة في الحديقة البعيدة عن الأنظار، جلستما أنت ومن كنت تدعي أنك تحبها قديمًا.. قبلتها، وأخذت ترشف من عسل جسدها، حتى أسقطت بنطلونها، وتحسست عورتها.. كانت مستسلمة، لكنك قاومت نفسك بشدة، وأنت تراها بعين المستقبل وقد تكور بطنها وتطلب منك إصلاح ما كسرته.

آه لو تعرفي يا أختي!.

لكنك تجاسرت وامتلكت زمام نفسك واكتفيت بنصفها العلوي وتقبيلها، بعدها قطعت علاقتك بها تمامًا، وكان المبرر واضحًا وحازمًا..

أنا لا أتزوج واحدةً فعلتُ بها ما فعلت!.. قالت لكني فعلت ذلك معك لأني أحبك.. ضحكت ساخراً منها وقلت: هذا كلام أفلام!.

أهذا العقاب إذن؟!

أعاقب بزوجة ليست بكراً جزاءً على ما فعلت؟! لكني لم أفقد الفتاة عذريتها؟ فلَمَ أعاقب؟! وأنا الذي حسبت أمي ستختار لي فتاةً محترمة. أنا الذي أصبحت أشك في كل الفتيات!.

ربما تتزوج تلك الفتاة وينزل منها دمٌ ليلة دخلتها فيحسبها زوجها شريفة ولم يمسسها أحد رغم ما فعلته أنا معها، أهذا ما أريده أن يحدث معي؟! أن ينزل دمٌ وكفى؟! ثم ما الذي يمنع أن يكون حدث مع خطيبتي ما حدث معي لكن اللعين لم يستطع كبح جماح نفسه وأفقدها شرفها؟!

الشرف!.. وما معنى الشرف؟! أما تقوله أختي صحيح؟! لكن أختي تريدني أن أتجاهل شهادة تلك الطبيبة وأعتبر أن شيئا لم يكن، أن أعتبر أني لم أقرأ شيئا ولم أعرف شيئا، بل وأفرح بأن خطيبتي لم تخفِ عليّ سراً خطيراً كهذا!. تقول ما الذي رأيته عليها لتحكم.. أنا لم أرَ شَيئا، لكن أهذا دليلٌ كافٍ؟

كيف أواجه العالم؟ وكيف أعيش معها وأنا سأظل ممتلئا بالشك منها؟ لماذا عليّ أن أقبلها بعيبٍ مثل هذا حتى لو كانت بريئة؟! هناك آلافٌ مؤلفة غيرها يمكنني أن أجد فيهن ما وجدته فيها لكن سينزل منهن دمٌ في ليلة الجماع الأولى. أهذا ما أريده؟! أنا لم أعد أعرف ما الذي أريد.

تباً لكِ يا أختي!.

***

في اليوم التالي ذهب إلى بيت خطيبته، رحبوا به، لكنه كان بارداً. طلب أن يقابلها على انفراد إذا سمحوا.. جاءت بعد قليل وقد بدا عليها السهر والتعب..

- كيف حالك؟

- الحمد لله.

ساد الصمت قليلا..

- أنا لا أعرف من أين أبدأ.. لكن...

- قبل أن تقول شيئا.. أريدك أن تدرك أني متفهمة قرارك أيًا يكن.. أنا فقط لم أشأ أن أخفي عليك شيئا.. وعلى فكرة أنا رحت كشفت دون علم أهلي.. ولما عرفوا بابا ضربني وبهدلني وأخذ يقول: ستفضحيننا يا بنت الكلب، على الله يكون حد شافك وأنت ذاهبة للعيادة الزفت.. قلت له أني رحت عيادة بعيدة جدا عن هنا حتى لا يعرفني أحد، وأني طلبت من الدكتورة ورقة تثبت أني بريئة.. ربما هذا ما جعل بابا يهدأ قليلا.. لكني حين قلت أني سأخبرك بالأمر كاد يقتلني، وكلهم أمروني ألا أفعل.. لكني كما قلت لك لم أشأ أن أخفي عليكَ شيئا، ولهذا اتصلت بك.. أنا أقدر قرارك أيًا كان.. إذا كانت أمي نفسها تنظر لي بشك كبير في الرواح والغداة، وكلما جاءت سيرة الزواج، تتحسر على بختها الذي مال فيّ..

سكت قليلا ليمنحها الفرصة لالتقاط أنفاسها وبدا أنها توشك على البكاء من جديد، لم يحاول التخفيف عنها وتركها على راحتها، لكنها تماسكت وقالت: أكمل كلامك..

هزّ رأسه وقال:

- أنا آسف..

ثم خلع دبلتها من يده ووضعها على المنضدة وهو يكمل:

- لن أستطيع.

لم تعلق وانهمرت دموعها على وجنتيها صامتة، فغادر المنزل دون أن يقول حتى لأهلها، وحين عاد لبيته أخبر أمه بكل شيء، بان أثر الفجيعة على وجهها، وقالت: الحمد لله أننا تخلصنا منهم.. غدًا أزوجك ست ستها، وتكون بنت محترمة، وأنا حسابي مع التي دلتني عليهم..

صاحت أخته: حرام عليكم يا ماما.. حرام عليكم.. لكن أمها هبت فيها: وأنتِ لمَ تدافعين عنها هكذا، هل أنتِ مثلها مثلا؟!

لم ترد على أمها واندفعت إلى حجرتها تبكي، وفي المساء جاءته أمه بصورة جديدة وقالت بجدية تامة:

- لا تقلق.. هذه المرة عاينتها بنفسي!.

(فبراير ٢٠١١)

عند منتصف الليل

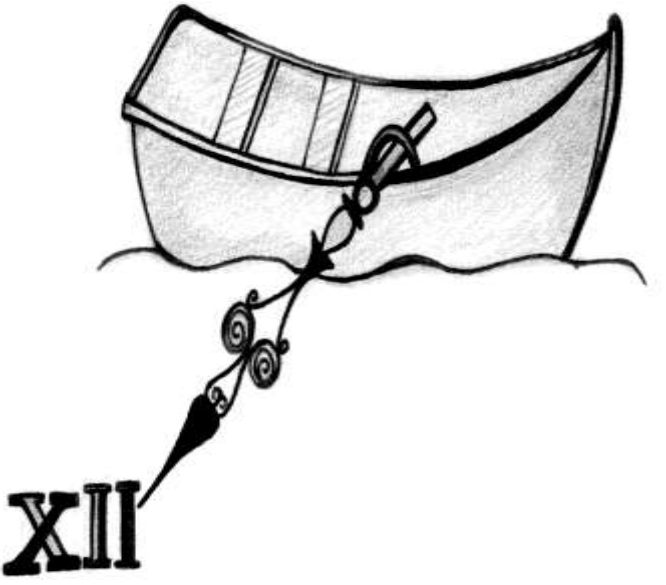

عند منتصف الليل

دفعت مجدافيّ مركب ذاكرتي الصغير بأقصى ما يمكنني، محاولا الوصول إلى كل تلك الذكريات قبل أن تغرق في نهر نفسي الثائر الذي يبز بحور الشمال في أهواله، ووجدت المسافة بيني وبينها تتباعد حثيثا، فألقيت روحي من فوق مركبي في محاولة يائسة لإنقاذ ما أود إنقاذه.

أخرجني من دوامة عقلي، وأعادني إلى واقعي؛ مرآها وهي تحمل حقيبتها، وتستعد للخروج بلا رجعة. لم أتمالك نفسي فقمت صارخا فيها:

- لِمَ؟! لِمَ فعلتِ فيّ كل ذلك؟

نظرتْ لا مبالية، فهمستُ:

- لِمَ منحتني كل شيء ثم سلبته مني؟ لِمَ؟!

زفرتْ وقالت:

- لم أسلب منك شيئا، أنتَ من ترك كل شيء كي يذهب وليس أنا.

- بل هي أنتِ، ولا أحد غيرك.

- أتظن هذا حقا؟! أأنا من عينتك في تلك الشركة الكبيرة ثم فصلتك منها؟! أأنا من جعلت أباك وأمك يتعاركان كديوكِ شركسية؟! أجبني إن كنت تستطيع.

تساقطت دموعي وهى تردف:

- أأنا من جعلت حبيبتك تتزوج رجلا غيرك؟! لا ليس أنا. ليس أنا أبدًا. أنت تلوم الشخص الخطأ لأنك لا تجسر على لوم نفسك.

عوت دقات الساعة تنعي مولد منتصف الليل، فقالت في أسى:

- تعرف أني لن أراك مرةً أخرى، لكني حقا أتمنى لكَ حياةً أفضل.

نظرتُ لها مذعوراً وصرختُ:

- ماذا؟! لن تتركيني هكذا. لم تعد مرآتي تعرفني. أخبريني قبل أن تذهبي من أنا؟ ماذا أفعل؟ وما هدفي؟

تأملتني مشفقةً ولم تنبس بحرف، ثم اتجهت للنافذة المفتوحة حاملةً حقيبتها، وقفزَتْ. صرختُ أناديها كي تعود وأنا أعدو نحو النافذة، ضربني هواء الليل القاتم في وجهي، فأغلقتُ النافذة، واتجهتُ نحو النتيجة المعلقة في غرفتي، فحملتها وقد انتهت أوراقها، لأعلق واحدةً أخرى جديدة بأوراقٍ جديدة، تشير إلى بداية سنةٍ جديدة.

(ديسمبر ٢٠٠٩)

-٢-

غربان المساء

غربان المساء

{ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ العِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }

الآية ٥٢ - سورة البقرة

***

بعد التيه؛ تيهٌ أكبر..

هل كنا نجونا فضعنا؟ أم مجرد عبرنا من ضياعٍ لآخر أكبر؟! أم أنه لا نجاة هنا من الأساس في هذا المكان الموحش المدعو حياة؟! وأي حياة في تلك الصحاري المقبضة بهوائها القاتم المخنوق كأسرابِ غربان فقأت عينِ الأفق، وسدت رحم السماء، فلا تعد ترى منها شمسًا ولا قمرًا ولا سحبًا، وإنما فقط ظلامٌ مخيف؟ كأن الهواء أصبح خليطًا من الرمال والغربان معًا!.. تشعر مع لمساته اللافحة بانقباضٍ داخل روحكَ؛ نفس الانقباض الذي تشعر به حين تسمع نعيق غرابٍ.. وتستشعر بداخل

فيكَ تلك الحبيبات الرملية الصغيرة التي يحملها، تصطدم بأسنانكَ وتحتكُ بسقف حلقكَ فتود أن تعطس لكنكَ لا تفلح فتسعل بشدة..

مع كل نفسٍ أسعل بشدة، لمَ أتنفس إذا؟!

ولولا الهواء لنسيتُ أني أعيش ولحسبتُ أني فقط ميتٌ أنتظر الحساب، لكني تائه، أكتشف فجأةً أني حي، وأحسب لأيام أني ميت..

أأنا حيٍ أم ميت؟! إن كان الموت مؤلمًا فالحياة أكثر ألمًا، وإن كان الموت راحةً فلا راحة في الحياة.. لمَ نحيا إذا؟! لمَ لم نمت من البداية؟! أم أن ما نحن فيه الآن ليس حياة وإنما هو موتٌ أصغر لكنا فقط لا ندرك ماهيته؟! إن كان موتٌ فهل كنا نحيا قبل أن نموت؟ وكيف سنموت ونحن أموات؟

والغربان تنعق فتصر على تذكيري بالموت.. بالقتل!

الأجواء من حولي خاملة فالنهار أوشك على الانتهاء، واستعدت الشمس للرحيل إلى مكانٍ آخر كي تحرق الأحياء فيه، فلتذهب إلى مصر- فتحرقها وأهلها أجمعين!.

برودة الليل تزحف على الر مال فتبللها بندى باردٍ، وتزحف على فقرات عنقي فأرتجف..

وهم حولي يستعدون لإشعال نيران المساء، ومن يشعل النيران التي تبدد المساء السرمدي داخلي؟

من أغصانٍ ميتة لفظتها أشجارها؛ خلقوا شعلةً بهيةً بلون قرص الشمس الغاربِ فتتت الظلمات من حولِنا قليلا حتى أصبحنا نرى بعضنا.. كما أخرج ابن ظفر* عِجْلا ذهبيا كالشمس يخور من حفنة

---

* ابن ظفر = السامري.

تراب.. وسجدوا.. الكثيرون سجدوا.. لكني لم أسجد، ولمَ لم أفعل؟ ماذا إن كان هذا العجْل هو يَهوه** حقا؟ أأكون الآن كافرا إذا؟! لستُ أدري!

وهج النيران ينعكس على الوجوه الملتفة حول مصدرها، وغربان المساء تنعق كأننا نبكي ألف قتيل.

يمكنني بسهولة معرفة ما يفكر فيه الجمع حولي: تُرى كيف ستكون غضبة ذي اليد البيضاء حين يعرف ما فعله القوم في غيابه؟

ربما أكثرنا قلقا وترقبًا؛ أخوه، فقد أوصاه موسى بالحفاظ على جماعتنا، لكن الجماعة قد تفرقت قلوبها والنفوس، أتساءل ماذا يدور في عقلك يا ابن عمرام***.

الصمت يخيم علينا كأنما يخشى أحدنا النطق بأي شيء. قد أوشكت ليالِيكَ يا موسى على الانتهاء، وتعود لنا بعد لقاء أدوناي. لكن أحقا ذهبت للقائه؟ أم أنه هو من يسجد له الآخرون؟ وإن كان موجودًا حقا في السماء كما تقول؛ فلمَ لم تلقه هنا؟ آلسماء هنا غير السماء فوق الجبل هناك؟ أم أدوناي يسكن فوق الجبل؟! وكيف يسكن الإله؟ وإن كان يسكن فما يمنع أنه يأكل ويشرب ويتنفس ويخور؟ ما الذي يمنع أن يكون هو ذاك العجل الذي خر له الآخرون؟ وإن كان كذلك فما الذي سيحدث إن ذهبت فحطمته؟ أأكون ساعتها قد قتلتُ الإله؟!

***

** يَهوه ، أدوناي = كلمتان تساويان لفظ الجلالة الله في اللغة العبرية.

*** ابن عمرام = كلمة عبرية تعني ابن عمران بالعربية، وفي القصة تعني هارون عليه السلام.

الأنهر هي الأنهر، والليالي هي الليالي.

لا شيء يتغير في هذه الصحراء. كل شيء مقيمٌ ساكن، يهيج فجأةً ثم يسكن كأن لم يكن. امتداداتٌ هائلة مد البَصر، رمالٌ لا يفرق بينها سوى انعكاس الشمس عليها..

لا يتغير هنا سوى الهواء: بالليل يهب برياح الصقيع، وبالنهار يلفح. ربما أيضًا تتغير الذئاب فتزيد واحدًا في جحرٍ بعيد، وربما تنقص واحدًا.. لكن الغربان تزداد دائمًا، نعيقها يتعالى كنذير شؤمٍ بِشَرٍ قريب.. وصوتها بالنهار أخف حدةً من الليل، ففي الليل تفيض حناجرها بنعيقٍ كالنشيج، كأنها تترنم بابتهالاتٍ لا نفهم لها معنى.. والليلة يعلو عويلها، يشق الآذان شقا.. والقلوب..

أرتجف وأرمق المرتجفين جواري. النيران تُدفئ أجسادنا، لكن ما الذي يُدفئ أرواحنا؟ تُرى ما حال القوم هناك؟ أترى عجلهم قد سكّن أرواحهم المضطرمة؟ أتراهم وجدوا في عبادته راحة قلوَبهم؟ لكن كيف يعبدون شيئا هم من صنعوه ولو من أثر رسول؟ لكن لو كان يَهوه هو الإله الحق ألم يكن يعلم أنهم سيفعلون ذلك؟ لمَ أرسل لنا ذلك الرسول؟ أتراه يفتننا؟ أم أن الإله الحقيقي أراد أن يعبر عن وجوده ويخبرنا بأننا على خطأ؟ أينا الحق هم أم نحن؟ العجل أم يَهوه؟ لمَ لا أذهب فأسألهم؟ لكن ذلك مخيف، ربما انسقت وراءهم.. أو لعل ذلك يكون من حسن طالعي، سجدةٌ لهذا العجل لن تضر وأكون قد ذقت طعم هذا وطعم ذاك فأملك الاختيار السليم.. هو كذلك.. سأذهب..

هجرتُ القوم مستترًا بسواد الليل، ويممتُ وجهي شطر النيران البعيدة للآخرين، وبعد أن خطوتُ قليلا ناحيتهم ولم يلحظني أحد لمحتُ شبحًا قادمًا نحوي من جوار، ولم يلبث أن ظهرت ملامحه وقد

رفع الشعلة التي في يده كي يتعرفني وأتعرفه، قال كلمات لم أعها فقد أفقدتني رهبة المفاجأة لساني، وعدت معه إلى حيث كنتَ منذ قليل..

حين وصلنا هلل القوم وأخذوا يتحدثون في آنٍ واحد، حتى هدأت قلوبهم وقد أفاضت بسرٍ ثقيل حوته لليالٍ طوال، فألقى موسى ألواحًا من يده فتحطمت، واقترب من أخيه وشدهَ من لحيته وهو يلومه أشد اللوم، وكنتُ أنا لا أزال أرتجف...

***

لم تكن الحياة قد استيقظت بعد في هذه الصحاري حين لمعت رمالها بوهج نيرانٍ حمراء كأ نها شمسٌ أخرى غير تلك التي بدأت تزحف نحو قبة السماء..

وقفتُ أرمق موسى وقد أحرقِ العجل بغضبٍ بينٍ، ثم ذراه في اليم، وقال لنا وقد اجتمع الفريقان معًا: يا قومي إنكم قد ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل.

قال أحدنا: يا موسى، ما من توبة؟

فأجاب: بلى... فاقتلوا أنفسكم ذلكم خيرٌ لكم عند بارئكم.

على الطائع منا أن يقتل العاصي، حتى إن كان العاصي ولده أو خليله أو أباه أو أخاه.. ولم نكُ لنجسر، فاستنجدنا بموسى، فخُفف عنا بظلمة، وحلت عقوبة الإله ضبابة عاتية، حطت كليلٍ بهيمٍ دائم يأتي من كل صوب، يُخفي الشمس خلف عباءته، ويخطف الأبصار، فأسرع الكل يتسلح بسيفٍ أو خنجرٍ أو سكين..

أمسكتُ سكيني والظلمة تقبض على كل شيء، حتى صرت كالأعمى، أتخبط وأتحسس أمامي بيدي، وسمعتُ أصوات شقٍ

وتقطيع، وآهاتِ تعلو، وصليل سيوفِ بعيدًا لا يـدوم، ورائحـة دمٍ تغـزو الأنوف..

أدور حول نفسي مترقبًا الطعنة في كل حين، لا أعرف من أين سـتأتي ولا ممَن.. أأنا طائعٌ أم عاصٍ؟ أعلىّ أن أقتـل أم أنتظـر القتـل؟ تخبطـت قدميّ في أطراف أجساد مبتـورة، وتلمسـت يـدي جسـدًا فـأوغرت فيـه سكيني فتأوه حتى سكنَ، ثم أخرجتها وأنا لازلت أدور حول نفسي، مـن أين ستأتي تلك الطعنة اللعينة؟ حتمًا من خلفي، لكن أيـن خلفـي؟ كـل الاتجاهات سواء في هذه الظلمة.. أحتى في الموت أتيه؟

نعيق الغربان يأتي من بعيد، يغلب صـوت التقطيـع، ويهـزم آهـات اللحم المتهرئ، ينتصر فوق كل شيء، إنـ.. آه.. آه.. آ.....

(أكتوبر ٢٠١٠)

بيضاء الثلج والأقزام السبعة

بيضاء الثلج والأقزام السبعة*

بيضاء كالثلج كانت...

تائهة في الغابة، تلتفت خلفها وتلقي نظرة على ذلك القصر- البعيد وتلمع عيناها بنظرة كراهية.

لمحت ذلك الكوخ الصغير أحنت ظهرها كي تدخل من بابه الصغير، المكان به سبع غرف، كل شيء دقيقٌ صغير، ومن كل شيء سبعة: السرائر، الوسائد، أواني الطعام، وحَتى كراسي الطاولة..

المكان يعم بالقذارة، وبدا لها أن الاستحمام ليس من عادة أولئك القوم، قررت أن تغادر المكان، لكن رأسها اصطدمت بصرةٍ كانت معلقة فسقطت، ومنها تناثر اللؤلؤ اللامع لينعكس مع بريق عينيها المخيف...

***

* مستوحاة من أغنية ألمانية.

قامت تنظف المكان بهمة ونشاط، ثم طهت وجبة دسمة ورتبت سبعة أطباق فوق الطاولة، قبلَ أن تصعد إلى أعلى حانية ظهرها قليلا، وتفرد جسدها فوق السرائر الصغيرة جميعًا، وترسم فوق وجهها ابتسامة ملائكية، وهى تسمع صرير الباب من الأسفل...

***

عمال مناجم كانوا...

سبعة.. منذ خلقوا وهم سبعة.. سبعة أقزام...

يعملون في منجم الماس القريب، كل يوم يذهبون في الصباح ولا يعودون إلا في المساء وهم يحملون ما أخرجوه من ماس..

بشكل ما صار المنجم منجمهم، لا أحد يعرف مكانه غيرهم، تجارة مرهقة لكنها مربحة بحق، وتكفل لهم حياة مثالية..

كل واحد لديه غرفته في بيتهم الكبير، كل غرفة فيها سرير ووسادة، وكل منهم له طبق يأكل فيه وكرسي يجلس عليه، وكل شيء يناسب أحجامهم..

يعودون كل يوم غارقين في تراب المناجم الأسود، لا يهتمون كثيراً بذلك، فالنظافة لم تكن من سماتهم اليومية، ينتهون من تنظيف أدوات الحفر، ثم يحملون الماس الذي أخرجوه يضعون نصفه في صرةٍ يعلقونها في مكان عالٍ، ويذهبون لبيع النصف الأخر، يسهرون في حانةِ ما ثم يعودون ينامونَ كالقتلى إلى الصباح..

اليوم حينِ عادوا وجدوا أضواء البيت مضاءة، بحذر فتحوا الباب فأطلق صريراً مزعجًا، انتظروا حتى كشفوا كل المكان بعيونهم الصغيرة، اطمئنوا أنه لا أحد في الدور الأرضي، فدخلوا يقدمون خطوةً ويؤخرون أخرى..

المكان نظيفٌ، ورائحة الطعام المنزلي تزكم الأنوف، وضعوا أدواتهم في خجلٍ من قذارتها، وصعدوا في ترقبٍ إلى الطابق الثاني، ورأوها...

عملاق شاهق البياض، يبتسم ابتسامة ملائكية، وينام على سرائرهم جميعًا، على الفور نزلوا من ا لغرفة وقد أضمروا في أنفسهم أمرًا، إن ذلك العملاق الجميل الطيب لا يجب أن يتركهم أبدًا...

وبقيت ليلتها أدوات الحفر متسخة كما هى، وانضمت إليها أدوات أخرى...

***

منذ اللحظة الأولى التي رأتهم فيها؛ علمت أنهم لم يروا قبلها أنثى، ربما رأوا فيما مضى لكنهم لم يروا في الأمد القريب..

نظراتهم على مفاتنها في ذهابها وإيابها لا تتزحزح، بياضها الوضاء أقوى من كل إرادة لديهم، ألم يصنعوا لها سريرًا كبيرًا يناسبها دون أن تطلب ودون حتى أن يعرفوها؟!

قررت أن تلعب دورًا تحفظه جيدًا، تنظف المنزل، تغسل ثيابهم، تطهو لهم الطعام، وتبتسم لهم ابتسامةً جذابةً رقيقة...

سقطوا جميعًا في هواها، وزارتهم في أحلامهم كثيرًا، أحلامًا وقحة كانت، حتى أثناء عملهم لم تغب عن أذهانهم...

قال أولهم وهو يرفع الفأس ليحطم بها الحجر اللامع أمامه:

- أرأيتم ما رأيت؟! لقد حُرمنا من الكثير يا إخوتي..

رد عليه آخر وهو يحفر بيديه الأرض:

- حين سأعود سآخذها غرفتي..

جاء صوت ثالثهم:

- ولمَ لا آخذها أنا؟!

وزمجر الرابع وهو يقول:

- بل هى لي أنا...

رفعوا أدواتهم وهموا بالعراك فقال أعقلهم:

- هي لنا كلنا، أحضروا لها قطعة كبيرة من الماس وستقبل بما نريد.. حتمًا ستقبل...

ونافست عيونهم اللامعة بريق الماس جوارها...

***

حين عادوا، لأول مرة دخلوا إلى الحمام ليستحموا، كان الحمام نظيفا لامعًا كعادة كل شيء في البيت منذ جاءت (بيضاء الثلج).. هكذا أطلقوا عليها فيما بينهم...

أخذوا حمامهم بالترتيب، وصعد كل منهم إلى غرفته ليجدها مرتبة نظيفة، فانتقى أفضل ما عنده من ثياب وأعد قطعة الماس التي أحضرها، مسحها جيدًا ليتأكد من لمعانها، ثم نزلوا جميعًا إليها عند مائدة الطعام الكبيرة التي صنعوها لتناسبها..

جلسوا يتأملونها وهم يأكلون، تداعب أيديهم قطع الماس في جيوبهم بترقبٍ شديد، وحين انتهى الطعام، أخذت هي بابتسامةٍ ساحرةٍ تغني بصوتٍ رفيعٍ ناعم...

لم يستطيعوا منع أنفسهم، أخرج كل منهم ماسته ووضعها أمامها، وعيونهم تنطق بما يريدون، نظرت للماس بلهفةٍ وتركتهم طوال الليل يعبثون...

***

لم يناموا ليلتهم تلك، ليلة عبثية كانت، سيذكرونها في أحلامهم كثيراً، لكن من قال أنهم لن يكرروها؟!

جاء عليهم الصباح، منهكين حملوا أدواتهم، وخرجوا إلى منجمهم، طوال اليوم يعملون في همة ونشاط - رغم إرهاقهم الشديد - وفي رؤوسهم لا يوجد أي شيء إلا ذكرى تلك الليلة الظلماء...

في سريةٍ قطع كل منهم قطعة ماس أكبر من المرة السابقة، أراد أن يجذب بها بيضاء الثلج فتكون له وحده، لم يتوقعوا أنهم جميعًا يفكرون بنفس الطريقة...

كانت هي تنتظر خروجهم بكل صبر، وتركتهم يعبثون بجسدها مشمئزة، حتى جاء الصباح فقامت أحضرت الماس الذي أحضروه لها، والآخر الذي في الصرة جوار الباب، وأفردتهما على سريرها تحت ضوء الشمس، فلمع الماس في شدة، ولم تستطع النوم إلا وهو بين أحضانها...

***

حين جن الليل وعادوا إلى البيت، وجدوها للتو مستيقظة من نومٍ عميق، لم يغضبوا لأنهم لم يجدوا طعامًا، لم يتضايقوا من أي شيء، هم يعلمون أنهم سبب استيقاظها متأخرة...

نظرت لهم نظرةً عابثة، وقالت بصوتها الرفيع:

- اغتسلوا حالما أعد لكم الطعام..

تقافزوا إلى غرفهم يحضرون ثيابهم النظيفة، وحين انتهى آخرهم من حمامه، صعد بسرعة إلى غرفته، أحضر قطعة الماس الكبيرة، ثم نزل إلى بيضاء الثلج في المطبخ..

رفع يديه إليها وعيناه ترجوانها أن تقبل، أخذت منه قطعة الماس في لهفةٍ واحتضنتها، ثم أشارت له أنها ملكه لكن بعد انتهاء الطعام...

ذهب هو إلى المائدة، ليجد إخوته جميعًا جالسين وكأن على رؤوسهم الطير، وإن حاولوا إخفاء السعادة المطلة من عيونهم..

جاء الطعام فالتهموه سريعًا، ثم وقفت بيضاء الثلج وقالت بصوتها الرفيع:

- كل منكم أحضر لي قطعة كبيرة دون أن يعلم إخوته..

نظروا إلى بعضهم البعض مستنكرين، ثم خفضوا أبصارهم إلى الأرض محرجين، قبل أن تتسع عيونهم مع صوت بيضاء الثلج وهى تصرخ هادرة:

- ستُعاقبون....

***

أمام الحائط وقفوا عرايا يرتجفون، وجوههم إليه وأيديهم مرفوعة إلى السماء، وبيضاء الثلج خلفهم تحمل سياطا كبيرا، وتنهل من أجسادهم بضرباتها، فوق مؤخراتهم، ظهورهم، أقفيتهم، حتى بطونهم طالها جزء من العقاب...

الدماء بدأت تفر من أجسادهم فأشارت لهم أن يصعدوا إلى غرفهم، وقبل أن يختفوا عن ناظرها قالت في هدوء مخيف:

- أنتظر غدًا قطعًا أكبر...

***

بالكاد استطاعوا النوم، لم تكن أجسامهم فقط تدمي، لكن نفوسهم نزفت خوفا لا حدود له، وعيونهم ترى مستقبلا مظلمًا..

خرجوا إلى المنجم في وجوم، لأول مرة يعملون وهم قلقون، صامتون، أحضروا قطعًا كبيرة للغاية، وعادوا إلى البيت، (بيضاء الثلج) لم تعد تلك

الرقيقة الحاملة، تفتح لهم حاملةً السياط، تضرب به الأرض في قسوة وتحذير، تشير إلى مائدة الطعام إشارة ذات معنى، فيتجهون نحوها ويضعون قطع الماس، تبتسم هى في لهفة، ثم تنظر لهم في شراسة وتشير نحو المطبخ، يضعون أدواتهم في مكانها ثم يتجهون إليه، يطهون الطعام كما كانوا في الماضي، ثم يضعونه في طبقٍ كبير، ويذهبون به إلى غرفتها، ينتظرون حتى تنتهي، ثم يحملون الطبق ويغسلونه، وقبل أن يناموا يسمعون صوت غنائها الرفيع، ولا يدرون لمَ بدا لهم نعيقا...

***

لقد صارت الحياة جحيمًا، العمل طوال النهار، تنظيف البيت وخدمة بيضاء الثلج طوال الليل، النوم لم يعد متاحًا إلا برغبتها هي، الطعام كما تشاء هي، كل شيء لها، ملكها، حتى هم أصبحوا عبيدًا لها..

المنجم ماسه يذهب إليها وحدها، كل يوم يعودون بقطعٍ كبيرة، تأخذ نصفها وتعطيه لأحدهم ليذهب به إلى السوق يبيعه، ويحضر بالمال طعامًا، أما النصف الآخر فلا يدرون عنه شيئا منذ منحها إياه..

حتى المنجم خيره نضب، أجسادهم نحلت، وعيونهم باتت من القهر دامعة، أصبحوا لوحة مجسمة للشقاء، إن الحل ليس بعيد المنال، لكن....

***

في ذلك اليوم، اتجهوا إلى منجمهم كعادتهم، خطواتهم بطيئة مثقلة بالهموم، أثناء عملهم، صرخ أولهم:

- هذا هراء!

قال ثانيهم في خوف، وهو يتلفت حوله:

- اصمت.. ستعاقبنا.. أرجوك إن جسدي لن يحتمل لسعة أخرى بالسياط...

- لم أعد أحتمل...

تداخل الآخرون...

- وأنا أيضًا لم أعد..

- لكنها أقوى منا جميعًا، لو شاءت سحقتنا بيدٍ واحدة..

- لا يهم.. أترى ما نحياه حياة؟! لنسحق بيدٍ واحدة خير لنا من كل هذا البؤس..

- أوافق.. لكن كيف؟!

- نعم.. كيف؟!... هذا هو السؤال...

***

- اليوم أريد أن أذوق التفاح... أحضر لي تفاحًا...

بصوتها الرفيع أنهت بيضاء الثلج عبارتها الآمرة، وأخذت ترمق أظفارها في هدوء، ثم أكملت:

- إذا تأخرت فسينال كلٌ منكم خمس لسعات...

ابتلع ريقه في توتر، وهو يومئ برأسه في خنوع، وراقبها وهى تتأمل إظفرها في شيء من توتر قبل أن تصرخ:

- إظفري لا يلمع..

حملت السياط وقامت، جروا أمامها كالخراف الضالة، لم يجدوا غير الحائط ليحتموا به، وفوق الأجساد الدامية انهال السياط...

نظر إليهم أخوهم في أسى، ثم حمل الماس وخرج، وقد حسم داخله أمرًا قاطعًا..

***

أنهـت تفاحتهـا الحمـراء، واسـتلقت فـوق سريرهـا، تغنـي بصـوتها الرفيع العابث، وقفوا خارج الغرفة يتبادلون النظرات...

- أأنت واثق من أنك وضعت السم في التفاحة؟!

- نعم.. وضعت كمية تكفي لقتل قطيع فئران كامل!

- لكن الملعونة ما زالت تغني.. إن الليل لن ينتظرنا..

تبادلوا النظرات من جديد، ولم يجدوا شيئا يفعلونه سوى الترقب... والانتظار...

***

ساد الصمت، فدخلوا الحجرة في قلق، وجدوها كما رأوها أول مـرة، ابتسامة رقيقة ملائكية، وقفوا يتأملونها قليلا..

- أماتت حقا؟!

- ربما نائمة!

في صندوق زجاجي وضعوها، عانوا كثيراً، لكن من أجـل الخـلاص لا ضرر من قطرات العرق، أغلقوا الصندوق الزجـاجي، وحملوهـا، وصـلوا إلى المنجم، احترموا حبها الشديد للماس، بالتأكيد لو كانت حية، لكانـت وصيتها أن تدفن هناك، حفروا حفرة ضـخمة، وضـعوا داخلهـا التـابوت الزجاجي، وقفوا أمامه...

- أتظننا نذكرها؟!

أهالوا التراب فوق الصندوق في صمت جنائزي...

- وكيف ننساها؟! سنقابلها مراراً...

المزيد من الغبار والعرق، وجزء جديد يختفي من التابوت...

- نعم لن ننساها نحن...

التراب يصل إلى الصدر...

- لكن أترى التاريخ يذكرها؟!

نظرةٌ أخيرةٌ على الوجه الملائكي، قبل أن يخفيه التراب...

- لستُ أدري... فالتاريخ يكذب أحيانا!

تفاحةٌ فوق الجثمان، وجوارها لافتة صغيرة تحمل اسم: بيضاء الثلج، وحين غادروا تزحزح غطاء الصندوق تحت التراب.

(أغسطس ٢٠٠٩)

على لسانٍ لاهث

على لسانِ لاهث

كانت أيامًا سعيدة تلك القليلة التي قضيتها في بيت الحيوانات البعيد وأنا بعد جروًا. لم أعد أذكر مكانه، طمسوا بداخلي كل الاتجاهات فلم أعد أدري سوى هذا المكان، مكان صغير رائحته عطنة، والدم المتخثر على الحوائط اكتسب لونا رماديا قاتما. وأنفي صار هائجًا دائما يبحث عن رائحة الدم الصدئة، والتي لا تنقطع في هذا المكان.

أتذكر أني قديمًا كنت آكل العظام وأحيانا فتات البسكويت، وبعض الوجبات المعلبة الجاهزة كان يشتريها لي صاحب بيت الحيوانات الذي كنت أسكنه، كانت أيامًا رغدة. منذ أن جئت هنا ومنعوا عني الطعام طويلا حتى كدت أفترس نفسي، وحاصرتني رائحة الدم حتى أني جرحت نفسي كي أتشمم المزيد. يقطعون عني الطعام أسبوعًا ثم يأتون بأجزاء متهرئة من أجساد بشرية، مرةً ذراع أو قدم أو رأس وأحيانا أحشاء. أكلت مرةً من الأحشاء. طلتُ الكبد. كان طازجا والدماء تسيل منه كأنهم لتوهم قد شقوا بطن إنسان وأخرجوه منها.

كنت أمقت الطعام الممزوج بالدم، لكن تجويعي قد أتى ثماره وأصبحت ألتهم ما يضعوه أمامي أيًا يكن، رغم رفضي في البداية. وبالوقت أحببت ما يضعوه أمامي، واشتهيته.

لم يكن حتى الحصول على الطعام هذا سهلا، فأنا لم أكن الوحيد، كان هناك كلاب كثيرة أخرى، في الأقفاص العديدة التي يمتلئ بها المكان. في كل قفص كلبان. وحين يوضع الطعام كان الصراع يحتدم عليه والرجل الذي يقدمه ينادي أصحابه ليشاهدوا هذا الصراع وهو يضحك جذلا فيأتي أصحابه ليضحكوا هم أيضا. كانوا يختلفون في كل مرة، ويختلف من يقدم لنا الطعام، لكنهم جميعًا متشابهون. يرتدون أزياء عسكرية تارة، وتارة ملكية، ودائمًا ضحكاتهم عالية ومخيفة، كلما سمعتها أتذكر وهم يشترونني من بيت الحيوانات، حين حاول أحدهم قرص أذني فهممت بعضه وأنا أنبح في وجهه، وأحمحم، فضحك وقال: إنه شرس!. سنصبر به بسيوني حتى يصل المواليد الجدد. وضحكوا وقتها كثيرًا نفس الضحكة التي يضحكونها هنا.

لم يضعوني في قفص وحدي كما كنت في بيت الحيوانات، ولكني جئت لأشارك كلبًا آخر في قفصه، حاولت التقرب إليه لكي أفهم ما الذي سيحدث لي في هذا المكان، لكنه كان فاترًا ولم يعرِ ولو عواء صغيرًا، فاستسلمت لقدري في شريك السكن.

من حين لحين كان هؤلاء الضباط يأتون ليأخذوا كلبًا منا أو اثنين، وفي أحيانٍ كثيرة كانوا يأخذون معظم الكلاب الموجودة وهم يبتسمون وكأنهم في الطريق لحفلة كبيرة. كنت أستشعر خوفا عارمًا وأنا أنتظر دوري حين يأخذوني، فهمٌ لم يصطحبوني معهم ولا مرة حتى الآن منذ أن جئت هنا. أخاف كثيرًا من كل هذه الشياطين السوداء التي تحوم في المكان كأنها صاحبته، وكل ضابط يأتي يحيط به شيطانٌ أسود عظيمٌ، كأنه سيمتصه داخله، يحوطه الشيطان من أمامٍ وخلفٍ وأعلى وأسفل

ويسار ويمين . كأنها دوامةٌ سوداء تسحب الضباط داخلها فلا يعد يظهر منهم سوى العينين. شياطين كثيرة ملأت هذا المكان شياطين تحيط بالرجال وتتبعها كظلها،(أم أن الرجال التي تتبعها كظلها؟!) وشياطين تحوم في الحجرة وتضحك نفس الضحكة المخيفة التي يضحكها الرجال.

كنت أنبح، أنبح، أنبح، أنبح... وانتبهت أني الوحيد الذي لم يزل ينبح، ولأول مرة تكلم جاري وقال لي:

- كفاكَ نباحًا، فلن يفيد؛ فلا أحد هنا يستعيذ من الشيطان الرجيم.

***

مرّ وقت لم أحسبه، لا معنى هنا لليلٍ أو نهار، أنام لأني لا أجد شيئا أفعله تارةً، وأنام لأقتل الجوع تارةً أخرى. وأصحو كتغيير للنوم مرةً وأصحو لآكل ما يأتون به من أشلاء مرةً أخرى. في بعض المرات جاؤوا بأجساد كاملة، أتذكر تحديدًا جسدًا كان مليئا بالجروح الطازجة وبدا أنه فقدَ كل دمائه قبل أن يأتوا به إلينا، انقضضنا عليه وكنت جائعًا جدًا، ولكني كدت أتراجع حين لمحته يتحرك وينتفض كلما نهشنا من جسده قطعة. كان لا يزال حيا. فرفعت رأسي نحو باب الحجرة الحديدي الذي في أعلاه نافذة صغيرة عليها قضبان حديدية عليها غطاء من الخارج، يمكن فتحه وغلقه، ودائما يكون مفتوحا حتى يتمكن الضباط من متابعتنا ونحن ننهش تلك الأشلاء والأجساد التي يرمونها لنا، رفعت بصري فوجدت عينين مذعورتين ترمقان ما يحدث، ورأسهما ممسوكة بأصابع قوية للضابط الذي أحضر لنا الطعام، والذي كان مبتسما كأنه في حفل زفافه، وشيطانه يتسع كثيرا حتى تكاد ظلمته تغطي على أضواء اللمبات البرتقالية الثلاثة الموجودة في سقف الحجرة. ثم ضرب تلك الرأس بقبضته وأغلق النافذة. وحين عدت برأسي لأكمل الطعام وجدتهم قد أنهوه.

***

اعتـدت الظلمـة واعتـادتني الشـياطين، وتوقفـت عـن النبـاح حـين اكتشفت أن زميل السكن على حق، كان يبدو مريضـا، وفي عينيـه حـزن عميق، كان أحيانا يحادث نفسه وهو نائم، وأحيانا يقول أنه ليس ذنبه، وأنهم قالوا أنه جهاد في سبيل الحق وخدمة للوطن. حين استيقظ سألته عن معنى ما قال، فأجـاب: لا تشـغل بالـك. إني أخـرف فلـم آكـل منـذ يومين. قلت له: لكنا أكلنا بالأمس. فسكت قليلا ثم قـال محتـدًا: ولمـاذا تشغل رأسك بي؟ أنا فعلوا بي ما فعلوا وسيفعلون بك ما سـيفعلون. ثـم ضحك ضحكة مجنونة وقال محدثا نفسه: جهاد في سبيل الحق وخدمـة للوطن؟ بالتأكيد أخرف وأهـذي. ثـم سـكت وقـال لي بمـرارة: ذات يـوم كنت ملكا لطفل صغير، كنا نلعب كثيرا في حدائق خضراء غنيـة بـالورود والرائحـة الذكيـة. وكانـت السـماء الزرقـاء الواسـعة تمـلأ الـدنيا نـورًا، والضحكات كانت سعيدة متفائلة ليست شـيطانية، أمـا هنـا فكـل شيء مقلوب، النور عتمـة، والطِيـبُ رائحـة نتنـة، والضـحكات آهـات. ولمـاذا خرجت يومها؟

نسيت أن أذكر الآهات التي أسمعها منذ جئـت هنـا، آهـات رتيبـة مليئة بكل شـجن الكـون، كنشـيج الغـراب يـواري سـوءة أخيـه وينعـى خطيئة البشر الأولى، آهاتٌ يتألم لها الجسد، وكادت أذني تنفجـران منهـا ذات مرة، حين تفجـرت آهـة في كـل جـدران المكـان حتـى أني ألصـقت ظهري إلى الحائط مرعوبًا وأخفيت رأسي بين فخذيّ، وأنا أرى الشـياطين تـزوم وتضـحك والآهـة تهـز جـدران الحجـرة كزلـزال عـات، وتـدافعت الحرب بين الآهة والضحكات على الجدران حتى أني اعتقدتَ أن الـدماء المتخثرة عليها حية وتتحرك وتشارك في القتال، وربمـا هـي مصـدر الآهـة ذاتها، كنت أرتجف وأنا أحاول حماية أذني من صليل تلـك المعركـة، ثـم أطلقت أنينا خافتا.. ولا أعرف كيف هدأ كل شيء كما بدأ.

كان يكمل: ولماذا خرجت يومها؟ لماذا ذهبنا إلى تلك الحديقة ثم تركني وتركته؟ لماذا ابتعدت عنه أثناء اللعب؟ أتراه نسيني؟ لم أنسه قط.

حاولت أن أهون عليه، فقلت: على الأقل أنت رأيت كل هذا، أنا لا أعرف ما هي السماء الزرقاء، ولا الورود الذكية، لم أرهم إلا وأنا صغير جدا، جاؤوا بي من بيتي إلى هنا، ولم أعد أعرف إلا السواد والشياطين والدم. قال: يحولونا وحوشا كي ننفذ ما يريدون. قلت: وماذا يريدون؟ قال: يقولون أننا نخدم الوطن!. لكن خدمة الوطن بالدم؟ نحن نقتل الوطن إذن!. لم أفهم ولم يوضح هو، فقط قال لي: سيأتي بسيوني قريبا سمعتهم يتحدثون، لقد انتهت مهلة تدريبك وأصبحت جاهزاً. لا تقلق ستفهم كل شيء وحدك.

***

بالفعل جاء بسيوني وكان لطيفا، وشيطانه كان أكبر من كل شياطين المكان، جاء بقامته الممشوقة ووجهه مرسوما عليه ابتسامة واسعة، أشار له الضابط الذي اشتراني وقال أن الهدية قد استوت وضحك. لامه بسيوني وقال لا تقل هذا على هديتي. ثم قال لي من خلف قضبان قفصي الحديدي: - لابد أنك تشتاق للشمس! لا تخف سآخذك للنزهة فقط عدني أنك ستكون مطيعًا. أخذت أهز ذيلي وهو يبتسم لي وينظر في عيني، ونظرت إلى شريكي في السكن أستنصحه، لكنه أشاح بوجهه، وأشار الضابط بسيوني إشارةً ما ففتح القفص، حيث تلك الأقفاص تُفتح بالكهرباء من وحدة تحكم بعيدة لم أرها. واستسلمت بين يديه وهو يخرجني من القفص ويحيط رقبتي بسلسلة طويلة آخرها في يده.

مشيت جواره في الممر خارج الغرفة وكانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها المكان رغم مجيئي من شهور. رائحة الممر كانت نتنة كرائحة الحجرة وكان طويلا بعض الشيء وإضاءته ضعيفة، ثم انعطفنا

على ممر آخر أقوى إضاءة ورائحة عطرة قليلا، ثم صعدنا ونزلنا ونزلنا وصعدنا حتى وجدتني فجأة في حديقة واسعة غناء يغمرها ضوء شمس باهت، ويجلس فيها هؤلاء الضباط يتسامرون ويدخنون ويحتسون الشاي. أخذت أهز ذيلي فرحًا بالشمس والهواء النظيف - أنا الذي حسبتني لن أرى ما حدثني عنه شريك السكن أبدًا - متجاهلا كل تلك الشياطين التي تحيط بالضباط وكأنها تشاركهم شرب الشاي وقد غطت ظلمتها على ضوء الشمس فجعلته خافتا كيوم غائم. لكني رغم كل شيء شعرت بامتنان كبير للضابط بسيوني، وكنت على استعداد لأفعل أي شيء يطلبه مني.

***

لم أتبادل الحديث مع شريك السكن مرةً أخرى، وظل متخذا جانبا عني، هائما في خرافاته وهذيانه على حد قوله، إلا أني اعتبرته صديقي رغم كل شيء، وكنت أشفق عليه. وذات مرة جاء الضباط وأخذوا كلابًا معهم، وكان شريكي من الذين أخذوا. نمت وصحوت وحركت ذيلي ولعقت جسدي بلساني وعويت وتبولت وحاولت التغلب على جوعي بالتفكير في أي شيء آخر ولا أعرف كم مرّ من الوقت إلى أن جاء ضابط ففتح الباب، وألقيَ في الحجرة كلبا جريحا، وركله نحو منتصف الحجرة، وهو يلعنه، ثم فُتحت لنا الأقفاص وخرجنا نحو الطعام الجديد..

حين اقتربت منه تبين لي أنه شريك السكن، كان مجروحا في أماكن كثيرة من رقبته وصدره، وكانت عيناه تكادان تغلقان، والكلاب الأخرى تحيط به وتتشممه أولا، نظر نحوي وقال: كان صديقي وقد صار شابًا! رفضت أن أؤذيه، وحاولت ألا أسمح لهم هم أيضا بإيذائه. ثم سعل، وانتفض جسده كله مع سعاله وأكمل: لا تصبح مثلي. أرجوك لا تصبح مثلي. إذا رأيت النور فاعلم أن الله يحبك؛ فتشبث به ودافع عنه.. كح..

كح.. لا تترك نفسك للظلام كما فعلتُ أنا. ونظر لي نظرة رجاء وقال متمنيا: اقضم رقبتي لا أريد أن يؤلمني هؤلاء المساكين. رفضت فقال واهنا: هيا.. أنا أعلم.. أنك.. جائع.. لاحظت أن الكلاب الأخرى بدأت بالفعل تهزه بأقدامها كي تحدد من أين تبدأ، وقد اعتادت على لحم البشر- طوال حياتها هنا، فأسرعت وقضمت رقبته في حركة خاطفة، فتحشرج ثم سكن. أخذت ألتهم منه معهم وأنا أتمتم في رأسي أني آسف، حتمًا آسف.

***

رغم كل شيء كان القفص قميئا وأنا فيه وحدي. فلم أعد أسمع تلك الخرافات التي كان يرددها زميلي وهو نائم، أو لم أعد أحاول سبر أغواره ومعرفة سر انطوائه عني. افتقدت شيئا كان يؤنسني في ذلك المكان الموحش. ربما ما كان يجعلني أتصبر على تلك الوحشة هو الضابط بسيوني وأنا أسمع خطواته الثقيلة الواثقة في الممر من حين لآخر، وأسمع معها كعوب الأحذية الميرية وهي تضرب في الأرض في تحية عسكرية له، كان مغروراً في مشيته يستشعر أنه شخص مهم جدا، وكان هذا واضحًا في المرة الوحيدة التي خرجت فيها معه إلى تلك الحديقة، تلك المرة التي لم تتكرر أبدا. كنت حين أسمع خطواته أقف في القفص وأهز ذيلي ولساني منتظراً أن يدخل، لكنه لم يأت.. حتى جاء يومًا فجأة مبتسمًا وقال لي أن وراءنا الكثير من العملَ ثم ربطني بالسلسلة وأخذني معه، وهو يقول للضابط الواقف على باب الحجرة: لم يأكل منذ أسبوع تمام؟ فهز رأسه أن نعم. مشينا في الممر قليلا حتى وصلنا إلى غرفة على يمينه، بابها بني ورائحتها نتنة إلى حد أصاب أنفي بهياجٍ شديد. دخلنا فوجدت صليبا خشبيا كبيراً في وسط الحجرة الضيقة، والتي لم تحوَ أي شيء آخر غير ذلك الصليب الكبير، إن اعتبرنا أن الشياطين جزء لا يتجزأ من المكان، فقد كانت الشياطين في كل ملي من الحجرة، تتزاحم وتتدافع، وتقاتل كي تجد مكانا على جدارٍ فيها،

والصليب الخشبي الكبير كان كالجدران الأربعة قد صار لونهم لوحة مليئة بشتى درجات الأحمر، تتفاوت بسبب الدماء التي يتغير تاريخ التصاقها بها قدمًا وحداثة. فالأقدم كادت تتحول إلى أسود تام، أما الأكثر حداثة فكان لونها لا يزال قانيا. وبينهما الرمادي والأحمر الغامق، والأسود الباهت. كانت حجرةً قاتمة مقبضة شممت فيها رائحة الموت من أول خطوة خطوتها داخلها. وأخذت أنطوي على نفسي- وأنا أحاول ألا يمسني أي شيطان، ونادى الضابط بِ سيوني على ضابط آخر وأمره بإدخال ابن الـ... وقال لفظا فاحشا جدًا عن أم ذلك الداخل.

جاء الضابط الآخر برجلٍ عارٍ تمامًا، من أول خطوة خطاها داخل الحجرة حتى بدد نوره كل تلك الشياطين، التي أخذت تَذوي وتذبل في ركنٍ بعيد عنه وهي تحاول الهرب في بعضها البعض، فقمت واقفًا فرحًا أنبح، فالتفت لي ذلك الرجل وقال لبسيوني:

- إن كنت ستعذبني فلتعذبني بيدك. حتى أستطيع أن أقتص منك يوم القيامة. لا تستخدم خلق الله في معصية الله.

ضحك بسيوني ساخرًا ورد:

- ومن هو الله الذي تتحدث عنه؟!

ثم سب الله بلفظٍ بذيء وقال:

- أنا الله. وإذا قلت لهذا الكلب كن سيكون.

ثم أشار نحوي وقال آمرًا:

- أيها الكلب.. انهش لحمه.

نبحت غاضبًا وأنا أرى الشياطين تعود فتستفحل في المكان، ونور الرجل يقاتلها بعناد، ثم وثبت عليه - بسيوني لا الرجل - وأخذت أحاول قضم رقبته، لكنه أمسك رأسي وأخذ يبعد أنيابي عن وجهه، وأنا أنبح وأخمشه بمخالبي حيثما أطول من جسده، ولم يدم هذا كثيرًا فقد

أفرغ الضابط الآخر كل خزانة مسدسه في جسدي، فسقطت على الأرض أمام بسيوني، الذي بصق علىّ بصقةً اصطدمت بوجهي، ورفسني فطرت لثوانٍ قبل أن أصطدم بالجدار في الحجرة الضيقة، وأسقط جواره على جانبيَ وأنا ألهث وأئن من الألم.. كان بسيوني قد وصل ذروة جنونه وبلغ غضبه الحد المسعور، فأخذ يفرغ غضبه في الرجل باللكمات والركلات، فحاولت أن أنبح معتذراً للرجل عما سأتسبب فيه له من الألم، وأني لم أستطع أن أدافع عنه، وعن النور المنبثق منه. ورفعت عيني نحوه فوجدته يـ رمقني مبتسمًا غير عابئٍ بتلك المسامير الطويلة التي يدقوها في كفيه وقدميه كي يثبتوه إلى الصليب الخشبي، والنور المنبثق منه يخفت ويتضاءل، وسواد الشياطين يستفحل حوله ويتضخم.. فابتسمت له وأغمضت عيني.

(يونيه ٢٠١١)

الغريب

الغريب

-١-

لكنه لا يحب لحيته!.

تضايقه بطولها الذي يزداد يومًا بعد يوم. يرمق نفسه في المرآة خلسة، لو عرفوا سيقتلونه. الرجال هذه الأيام لا ينظرون في المرايا، فالمرايا خُلقت للنساء فقط!.

وما الذي يفرقه وجودها من عدمه؟! أليس الله ينظر لقلوبنا لا لصورنا؟! وهو يحب أن يقابل الله في أبهى صورةِ خلقه عليها.

بحث عن موسي للحلاقة فلم يجد، ولا حلاق في المملكة سيحلق له لحيته، ربما ذبحه بالموسي وهو بين يديه.

امتشق خنجرًا من خناجر أخيه، سالت دماؤه كثيفة لكنه انتزع لحيته عن وجهه، ورغم أن لمسات الهواء آلمته إلا أنه كان سعيدًا جدًا بها..

جاء أخوه. حين رأى: صرخ، هاج وماج واشتعل الصخب. صفعات. ركلات. صليل خناجر تُنزع من غمدها. ثم أخذه أخوه وقال: اخرج أيها النجس من هنا حتى يعتبر بك من لا يعتبر.

دفعه فتدحرج يرتطم بدرجات السلم الصخري، الهدوء خيم على الشارع الكبير حين وصل الجسد المتدحرج إليه..

الشارع كله رجال يرتدون سوادًا فوق سواد، ولا نساء، فهنا مكانهم البيوت، ولا تنزل امرأةٌ أبدًا إلى الشارع، رأوا الطامة الكبرى فحوقلوا وبسملوا ثم لعنوا.. وتلقفوا أحجار الأرض يضربون بها الجسد المسجي..

- أيها الزنديق!.

- أيها الكافر!.

- أيها الفاسق!.

وأخوه يقول:

- طهروه من الشياطين.. طهروه.

طالبوا برحيله حتى يكون عبرة، فالموت عقاباً هينا، دعوه يُعذب في الدنيا والآخرة، فليذهب إلى الملاعين في المملكة الأخرى، فليحشر معهم، إلى جهنم وبئس المصير!.

عاد إلى شقته يجمع ملابسه الصغيرة، نادته أمه من وراء حجاب، لعنته وبصقت عليه، نزل إلى الشارع مرةً أخرى، استقبلته حفنةً جديدة من الأحجار..

أحجار حادة مدببة كالفرجار، تخترق الجسد فتستقر به قليلا ثم تسقط ومعها الجلد، بعضهم لسعه بسياطٍ يحملونها، هؤلاء الذين هم مثل أخيه، يتمنطقون بالخناجر ويجوبون في كل مكان.

اصطفوا على الجانبين، وصنعوا خ لفه صفا ضخماً، يرمونه بالحجارة، وهو يحمل مخلته الصغيرة يحمي بها رأسه قدر ما يستطيع. دماؤه تنهمر على الأرض الجدباء فتتفتح لها تربتها وتبتلعها وتُنبت بها زهراتٍ صغيرة.

قرص الشمس الغارب يواجهه مهاجراً عبر السماء، والأحجار من خلفه تضرب ظهره وقدميه، ومخلته فوق كتفه، وأمامه الطريق.

-٢-

بعد يومٍ كاملٍ وصل إلى المملكة الأخرى. قابلت نظراته المندهشة، نظراتهم المندهشةَ، كانوا عرايا، شعورهم طويلة تصل إلى كعوبهم، وأظفارهم بالغة الطول والقذارة، يرقصون في الشوارع ويتناكحون. حين رأوه يرتدي جلبابه الأبيض المُشرب بحمرة دمه الذي سال، هاجوا وماجوا واشتعل الصخب. صفعات. ركلات. صليل زجاجات خمرٍ تُكسر رقابها..

- ما هذا أترتدي ملابس؟!

- أيها الرجعي!.

- أيها المتخلف!.

- أيها الجاهل!.

وكبيرهم يقول:

- علموه كيف تكون الحرية.. علموه.

حاولوا صب الخمر في فمه، لكنه تمنّع وقاومهم. تناكحوا أمامه: رجالٌ ونساء، رجالٌ ورجال، ونساءٌ ونساء. نزعوا عنه مخلته، وربطوه بحبلٍ وجروه في الشارع، يتلقف كل من يراه حجراً فيقذفه به. أحجارٌ مدببة حادة كلسعات النار، يخترق الحجر الواحد منها جسده فيذوب ويذيب معه ما يطوله من الجسد..

اصطفوا على الجانبين، وصنعوا خلفه صفا ضخماً، يرمونه بالحجارة، وواحد يجره بالحبل حتى سقط على وجهه فجرجروه حتى ألقوه خارج المملكة ليكون عبرةً لمن لا يعتبر، عد من حيث أتيت، عد إلى حيث يرتدون الملابس!.

قرص الشمس يواجهه في وسط السماء هذه المرة، فتخترقه أشعته تلهب جسده، لكنه يقاوم الألم ويقف على قدميه، يداه مضمومتان أمامه مقيدتان بحبلهم الغليظ..

غادر وترك خلفه دماءه تروي شبق أرضهم الجدباء فتُنبت بها زهراتٍ صغيرة.

-٣-

الصحراء جنة الأنبياء.

وجد جذع شجرة جدباء، فرعها يابسٌ يتلطف للسماء، يستجدي غيثها، الصفرة الداكنة تحرق عينيه، وصفير الريح الخفيف يحيط به من كل جانب.

السكون.

استخدم قبضتيه المقيدتين وربط ببقية الحبل نفسه إلى الشجرة، أحكم الرباط جيدًا..

أسند ظهره إلى جذع الشجرة الحزين، وتهاوى جالسًا..

تطلع إلى السماء ثم ابتسم.

(إبريل ٢٠١١)

أشباح العسكري الأسود

أشباح العسكري الأسود

مدينة الملاهي الكبيرة في القرية البعيدة يحبها الجميع. أهالي قريتها الذين يعملون فيها كلهم تقريبا، وأهالي القرى المجاورة أيضا.

مدينة الملاهي الكبيرة في القرية البعيدة يُشد إليها الرحال. لا مشاكل فيها، فالكل يأتي ليستمتع ويفرح، أهلها ودودون طيبون، مرحبون، يعملون بجد لأجل الحفاظ على مدينتهم الترفيهية محط أنظار كل القرى المجاورة. لا يصنعون مشاكل مع زائر، ولا يختلفون مع بعضهم.

مدينة الملاهي الكبيرة في القرية البعيدة يحرسها حارسٌ واحد وحيد بالليل، وبالنهار نائم، يرتدي الأسود كي لا ينتبه اللصوص لوجوده، لكن لا لصوص ليسرقوا. سمع أهل القرية يتحدثون عن أن وظيفة الحارس ليست مهمة فكل القرى تحبهم وتحب مدينة الملاهي، وهم أوفياء لن يسرق أحدٌ فيهم محل رزقهم جميعا، ما الداعي لوجود حارس يحمل بندقية إذن؟

تشاوروا وأوشكوا على اتخاذ قرار بإلغاء وظيفة الحارس، وتعاهدوا أن يبحث كل منهم في عقله عن وظيفة تناسب العسكري الأسود حتى

لا يقطعوا عيشه وعيش أولاده، وأنهم لـن يسرحوه مـن عملـه هـذا إلا بعدما يمنحونه العمل الآخر.

لكنه لا يعـرف شـيئا غـير البندقيـة والتخفـي، وقـول: مـن هنـاك؟! بصوت جهوري، كي يخيف أي لص يفكر في الاقتراب. يريدونـه أن يعمـل أي شيء؟ لن يرضى بهذا أبدًا. والسبيل لجعلهم يحتاجون لحـارس إذن؟! لصوص! خطر! خوف! فزع!

لكن من أين يأتي بلصوص وكل القرية تعمل في المدينة وتحبها، وكل القرى المجاورة تحبها أيضا. من يـرضى بسرقتها؟ فكـر مليـا.. لمـح ظـلال شجرة وافرة قريبة من السـور، اهتـزت فروعهـا فتحركـت الظـلال، أيهـا اللص اللعين اثبت مكانك. تاداداداً.. تـاداداداً.. واسـتيقظت كـل القريـة مفزوعة. ولما وصلوا لمدينة الملاهي الكبيرة وجدوا رصاصات قد حطمـت أحد الأجهزة الكبيرة، والعسكري الأسود واقـفٌ يلهـث، وقـد وضـع يـده على صدره، وأشار بالأخرى بعيدًا، فأخـذ أهـل القريـة يعـدون في اتجـاه يده يحاولون الوصول للص، لكنهم عادوا وقالوا أنـه لابـد قـد تخفـى في حقول الذرة. وحـين سـألوا العسـكري الأسـود أرآه؟ تلفـت في وجـوههم صامتا ثم قال أنه لم يتبين وجهه جيـدًا في الظـلام، لكنـه سـمعه يغمغـم بلهجة أهل القرية المجاورة.

في الأيام التالية بدأ أهل القرية البعيدة، يتعـاملون بخشـونة وشـك مـع أهـالي القريـة المجـاورة، وحـدثت بعـض الخناقـات وصـلت لحـد التشابك بالأيدي، وصارت القرية المجاورة من الأعـداء، ومدينـة الملاهـي الكبيرة محرمة عليهم.

كان العسكري الأسود سعيدًا، فقد سمع أهل القرية يتفقـون أنـه لا غنى عنه الآن، ولابد أن يبقى حارسهم الأمين.

في الليالي التالية أعاد الكرة. يلمح ظلا فيضرب عليه خزانة رصاصاته، وفي كل مرة لص من قرية مجاورة مختلفة، وأهل القرية أصابهم الفزعِ، وقطعوا علاقاتهم بكل أهالي القرى، ووضعوا تحت قيادته رجلين، صار آمرا ناهيا فيهم، يأمر هذا بالحركة هنا وذاك بالحركة هناك. صارت نظرة الاحترام والطاعة هي نظرة كل من يحادثه، وأخذ يلقي تعليماته الأمنية على كل أهل القرية، كلمته صارت أمرا لهم جميعًا.

مرةً ضرب رصاصاته فأصابت شيئا وارتدت فاخترقت واحدةٌ ذراعه فسقط يتأوه في ألم، جاء طبيب من أهل القرية أخرج له الرصاصة وأخذ الناس يتوافدون يقدمون للعسكري الهدايا يتمنون له الشفاء، فهم خائفين جدا وهو غير واقف لحمايتهم ليلا.

أما الطبيب فرأى الرصاصة هي نفس الرصاصة التي يراها أهل القرية كل يوم جوار الأجهزة المحطمة أو داخلها. ذهب الطبيب إلى العسكري الأسود يستفهم منه بعدما شُفي الأخير. كان في مكان حراسته عند المدينة فذهب إليه الطبيب..

- سيدي الحارس ألست ترد على اللصوص برصاصاتك حين يأتون؟

- بلى.

- إذن لماذا لا أرى كل يومٍ سوى نوعٍ واحدٍ من الرصاصات؟

- ماذا تقصد؟!

- أنا لا أقصد شيئا. أنا أسأل.

- لا تسأل وعد لبيتك.

- لكن...

- لا لكن..

ثم قام العسكري الأسود وأعلن انتهاء الكلام. في الليلة التالية.. صوت الرصاص علا من جديد، وهبت كل القرية تقتل الأرض بحثا عن

اللص ولم تجد شيئا، والعسكري الأسود يقف شامخا يقول أنه رآه فلم يمهله وأطلق عليه النار. لمح الطبيب الرصاصات كانت نفس الرصاصات. في الليلة التالية ذهب إلى العسكري. لم يقل سيدي. قال:

- لقد انكشف كل شيء. سأتركك ترحل عن هنا في صمت.

ضحك العسكري الأسود. قفز فوق الطبيب خنقه. قتله.

ثم أفرغ فيه رصاصاته.

جاءت القرية. لقد حسبته لصا. أنا أعتذر. لك عذرك. الطبيب هو المخطئ لمَ جاء إلى مدينة الملاهي بالليل؟!

في الليالي التالية كان العسكري الأسود، يلمح الظلال في كل جانب، يبدو أن اللصوص جاؤوا فعلا! أخذ يطلق نيرانه في كل ناحية، لا يعرف ماذا يفعل. ربما هو شبح الطبيب يريد الانتقام، وربما أهل الطبيب نفسه. لا يعرف. كل شيء حوله يتحرك، وأهالي القرية صاروا في فزعٍ دائم، يضرب الرصاص في كل ناحية، فيرتد إليه، يضربه في قدمه وذراعيه. سقط على الأرض. أيها الأوغاااد اظهروا كي أقتلكم. لا أحد يرد، يتلفت برأسه وهو عاجز على الأرض كالمجنون، ينادي أهل القرية لكنهم كانوا قابعين في بيوتهم مفزوعين، رفع بندقيته إلى حلقه وأنهى كل تلك الظلال.

(يوليه ٢٠١١)

آرماجدون

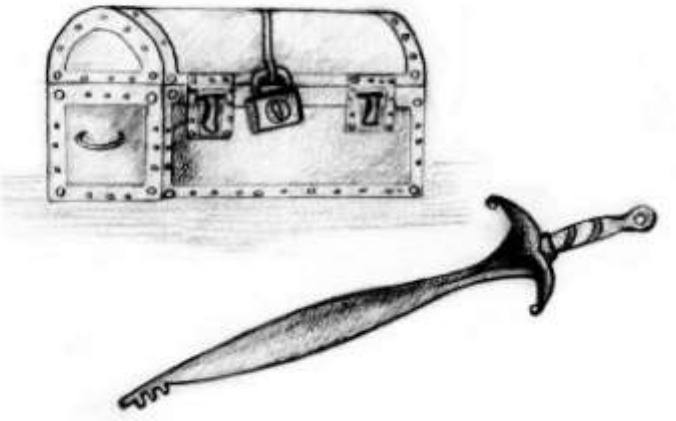

آرماجدون

لم يولد النهار بعد. والسماء مضطربة لا تستقر على لونٍ، وإن كان اضطرابها الأزرق - الذي يبهت رويدًا - يأتي من ناحيتنا، وقد سيطر السواد على الناحية الأخرى. وبدأت شمس خجول تظهر من خلفنا، لكن سحبًا قاتمة كبيرة لمت إشعاعاتها، فلا وصلنا منها نورٌ ولا دفء، تخنقها الغيوم بسلاسل من هواء بارد، هو حتمًا أخف وطأة من الهواء البارد الذي يضرب صدورنا ورئاتَنا وعقولنا، ونحن مصطفون صفوفا مضطربة كاضطراب السماء وليلها وسحابها وشمسها.

وقفت أتطلع خلفي إلى فرجة صغيرة صنعها شعاع شمس عنيد، كي يخبر الدنيا بأن هناك نورٌ - ولو ضئيل - خلف ذلك الظلام، لكنه لم يلبث أن قُتل وقد تعاضدت الغمامات وسدت الفرجة الصغيرة. لا أعرف كيف رأيت الملك ثيودن وهو يصرخ في جنوده أن تلك هي معركتهم الأخيرة، المعركة التي سيسود بعدها الدمارُ العالمَ. كان واقفا وسطهم على حصانه الأبيض ويبارك رماحهم بسيفه ذي المقبض الفضي المرسوم عليه حصانين هم رمز مملكة جوندور. أخذ يرتب جيشه

الصغير – مقارنةً بجيوش الشر – قلبًا وميمنة وميسرة، وهو يلقي فيهم خطبته الحماسية، ثم وقف أمامهم ورفع سيفه وصرخ: الموت!.

ردوا عليه بصراخٍ زلزل الأرض: الموت!.

الموت!.

الموت!.

الموت!.

الموت!.

دوت الأبواق، ثم انقضوا، والتحموا.

دائمًا ما عشقت هذا المشهد من فيلم ملك الخواتم، خاصةً مع الرعب الذي يرتسم على وجوه الأورك الأشرار، وهم يرون جيش النور يسطع في عيونهم ويقترب لا يهابهم ولا يهاب نصالهم، لا أعرف لمَ تمثل لي الآن، ربما الهواء البارد قد عصف بذكرياتي فأخرج منها ما يتناسب مع الموقف.. ربما. أكثر ما يجذبني في هذا المشهد أن جنود مملكة جوندور كانوا يدركون أنهم الخير الباقي، وبفنائهم يفنى كل خير في العالم ويسود الدمار. كانوا يدركون أن تلك المعركة لا بديل عن نهايتها، لا نصر فيها، ولا حتى سيذكرها التاريخ، لكنهم خاضوها لأن عليهم خوضها، ربما الآن أفهم مشاعرهم، ولا أعرف لمَ بدا لي المشهد الآن حزينا جدا، مخيفا جدا.

زفرتُ معلنا توتري لكل شيء حولي، وأنا أتوسل للشمس لتشرق سريعًا، سئمت هذا الهواء البارد الذي يصر على بعثرة الذكريات، وما جدوى الذكريات الآن؟ لا تجلب سوى الألم، ربما المزيد من الخوف. تبًا أيتها الشمس! ماذا تنتظرين؟! أن أموت رعبًا؟! لتشرقي سريعًا، فأنا أخاف أن أموت في الظلام. أخاف الظلام. بل أخاف الخوف. أخاف أن

يثنيني عن شرف الموت اليوم. لا أقول أني لا أخاف الموت. ومن لا يخافه؟ لكني - كجندي في جيش الملك ثيودن - أدرك أن الموت آت آت، فلأمت بشرف إذن. حتمًا لن يأتي لنا الملك أراجورن بالجنود الأشباح - كَما حدث في الفيلم - كي نهزم كل ذلك الشر الشر!. ذلك الجيش الأسود أمامي. بدأ السواد الخفيف المحيط به يخفت قليلا، فظهر سواده أكثر!. يبدون رؤوسًا سوداء مسربلين بسماء قاتمة يملؤها دخان باهت، يرفعون علمًا أحمر لون الدم، ولا يفهمونَ سواه. جيشٌ من خفافيش عمياء تتسمع سريان دمائنا الخائفة في عروقنا المزرقة وتنذر بالويل. عتادهم كثير كالسيل: سلاسل، هراوات، جنازير، مطاوي، خناجر، سيوف، مسدسات، بنادق، صواريخ. لا تتبين سلاحهم ولا وجوههم في الظلام الحالك المحيط بهم، فقط ترى علمهم الدامي، وتسمع صوت ضربات أقدامهم على الأرض بخطوة ليست منتظمة، يشبه دبيب قطيع ثيران برية قد فاجأته الضباع، فتملَكه الفزع وصار يعدو في كل مكان صانعًا زلزالا من دبيب الحوافر.

كانوا يتقدمون وحين وصلوا إلى مقربة منا، توقف دبيبهم فجأة، وسكنوا تمامًا، حاولت أن أحصيهم بعيني فخانتني، وشعرت بنبض قلبي يتعالى، والخوف مستتر خلف الصخور حولي، يخرج لي رأسه من خلف صخرة كبيرة، يضحك ويخرج لي لسانه، ثم يخفي رأسه مرةً أخرى خلف الصخرة كطفلٍ صغير شقي. أخذت أربت بيدي على قلبي أطمئنه، وأنا ألعن الخوف في سري. جلت بعيني أحاول استعادة الثقة برؤية جيشي، لكني من أول التفاتة أحصيت عدده وعتاده، فازداد توتري فسعلت وقد دخل لعابي لرئتي ، التفت لي الواقف جواري مبتسمًا وقال: خائف؟

انفلت مني الجواب فخرج دون قصد صوتي خشنا: قليلا.

- لا تخف. كم من فئة قليلة غلبت فئةً كثيرة بإذن الله.

- ونعم بالله!.

وزفرت وأنا أكمل:

- لكني لا أحسبني بالإيمان الكافي لأكون ضمن الفئة القليلة التي تفوز.

- لكنك هنا، وهذا دليل إيمانك!.

لم أرد واكتفيت بهز ر أسي مع ابتسامة اغتصبتها له، وحاولت ألا أنظر لأولئك المسربلين بالظلمة كي لا ينتابنيَ خوفٌ فوق خوف، وبدا صفير الريح الباردة حولي مرعبا، ولا صوت غيره. ظل الذي بجواري على ابتسامته، ربما هو أيضا خائف لكنه يشجع نفسه بتشجيعي، وربما يداري خوفه بقناعٍ مبتسم، ربما كلهم حولي خائفون، وليسوا كما يبدون ثابتين كجيشٍ منتصر، أدور في وجوههم، أتطلع إلى ارتباكها ونظافتها، وقائدنا واقفٌ يتأملهم مثلي، وحين وصلت ببصري إليه كان ينظر نحوي ويبتسم ابتسامة واسعة، فشعرت ببعض السكينة، قال كلماتٍ تشجيعية حماسية مليئة بالجنة، والحق، والخير، والله. اقشعر لكلامه ظهري، ووجدت – كلامه – يختلط في ذهني مع كلمات الملك ثيودن، فلم أعد أدري أي كلامٍ أسمع، وحين أنهى قائدنا كلامه وكبر، رددنا عليه بصوتٍ زلزل الأرض:

الله أكبر.

< الموت!.>

الله أكبر.

< الموت!.>

الله أكبر.

< الموت!.>

ثم اندفعنا نحو جيش الظلام، الذي انتظم مستعدًا، وأخـذنا نصرـخ، نصرخ، نصرخ، ونحن نعدو نحوهم، وشهرتُ مسطرتي التـي عـلى شـكل حرف T ، والذي بجواري شاهرًا سماعته الطبيـة، وحـين التقيـت بـأولهم ضربت سيفه بمسطرتي، فتحطمت.

(يوليه ٢٠١١)

القصاص

القِصَاص

قرأ خبرًا عن سيدة بقرت بطنها لأنها لم تكن تريد ذلك الجنين، جاءت بسكين حادة وشقت من عند السرة، ثم حاولت إخراج جنينها فلم تفلح، فأخذت تطعنه في كل مكان طالته منه. كان ذلك وهو ذاهبٌ إلى العمل ظهرًا، ينزل كالمعتاد بعدما استيقظ مكدودًا من نومٍ قلق، ربما الأرق أفضل، يغسل وجهه، يرتدي قميصًا وبنطلونا وحذاء، يقف على عتبة المطبخ يمضغ لقيمات كإفطار، يمضغ كالجمل، لا يستطعم الطعام، لا يسوغه، يمضغ فيبتلع فيشرب فيتجشأ بصوت منفر، ثم يتجه للباب ولا يزيح الستارة السوداء التي وضعها على المرآة ليعدل من هندامه قبل أن يخرج، يقف أمام بائع الجرائد، يقرأ عنوانا هنا أو عنوانا هناك، نفس العناوين كل يوم، لذا كف عن الشراء، كف عن أشياء كثيرة، كثيرة جدا.

عمله بعيد عن البيت، ككل يوم ينظر لساعته، ليس متأخرًا، فيقرر المشي. أحيانا كان يُقدم ساعته ليقنع نفسه أنه ليس متأخرًا كي يذهب مشيًا!. يحب رؤية الشوارع المزدحمة والناس، يحب؟! لكنه كف عن الحب، كف عن أشياء كثيرة، كثيرة جدًا.

في الطريق عبر جوار رجل يركب عربة يجرها حمار هزيل، فوق العربة آلاف مؤلفة من الأقفاص الخشبية يبرز منها فواكه وخضروات، وأكوام على هيئة أهرام من البطيخ، والحمار لا يحتمل ثقل صاحبه مع كل ذلك، فسار صاحبه جواره يشد اللجام ماشيا، كان الثقل كبيرا فوق الحمار النحيل، واهتزت سيقانه وهي تنثني وتنفرد تباعًا في ضعف، إلى أن سقط على الأرض وسط الطريق، وصاحبه ينهره ويسبه، ويخرج سياطه ليلسعه ألف لسعة، الحمار يطلق أنات خافتة تعلو باستمرار كنغمٍ موسيقي حزين، نغم شنيع، نغم مؤلم، لكن الآذان الصماء تتدافع مع الرجل فتحاول أن توقف الحمار على قدميه، بعضهم خرج من سيارته يسب الحمار وصاحبه، والآخر لعنه لأن البنزين غلا!.

نظر إلى ساعته، لا يستطيع أن يقف هنا أكثر من ذلك، أكمل طريقه..

مر جوار الجامعة، الطالبات خارجاتٌ منها، والشباب خلفهن من كل حدبٍ وصوبٍ، يعاكسون، يتهامسون، يتلامزون، كلامٌ قبيح، البعض بدأ في الاقتراب، اللمس، الشد، الجذب، الرفض القاطع، التقطيع، وتحرش جماعي في وسط الميدان الكبير، تحرش جماعي لأكثر من فتاة من كل فتيان العالم، جراد أعمى، وصرخات استغاثات هائلة تهز المآذن والأجراس، وأسراب الحمام خافت لكنها لم تجد مكانا آخر تبني فيه أعشاشها، فظلت تعوي في السماء، بزقزقة عصبية، مضطربة، وانحنت عصفورة أو اثنتان تنقران رأس شاب أو آخر، وأناس كثيرون صعدوا إلى الشرفات، يشاهدون، البعض يضحك، البعض صامت، والبعض يخرج متأففا يتساءل ألا يجدون وقتا أفضل للصراخ من وقت قيلولته؟!

عبر كل شيء وتجاهل تلك التي نظرت في عينيه تستنجد، وتلك الصرخات التي تشبثت بقميصه تكاد تمزقه من دبرٍ، وعدل ياقته، وهو يكمل سيره..

اقترب من مكان عمله، لكنه مرّ على مشاجرة قامت لسببٍ لا أحد من المتزاحمين حولها يدركه، ربما كانت بدأت باثنين فقط، وربما بواحد، لكنها الآن مشاجرة مائة مع مائة، ألف مع ألف، والناس خرجت إلى الشرفات بفانلاتها الداخلية المصفرة الباهتة تتطلع، ووسط الدائرة وقف الاثنان يتشابكان بالأيدي، يتدافعان ثم يقتربان، وبعض المتزاحمين ينادي بالصلاة على النبي، فيناله ضربة من هذا أو ذاك فيسب ويبدأ في ضرب من ضربه، فيدافع عنه رجل ويقول أنه لا داعي فالضارب لم يكن يقصد، فيقول الأول وما دخلك؟ فتبدأ مشاجرة ثانية، وثالثة، ورابعة، وخامسة، وتُرفع مدي، وتُشهر سيوف، وتلمع سواطير، وتُبتر أذرع، وتُشج رؤوس، وتُقطع أحشاء، لكنه يـ بتعد قبل أن يصيبه دمٌ من الذي يتناثر هنا وهناك.

وصل عمله.. جلس وقام، كتب وقرأ، سبه المدير وسبه الساعي.. عاد إلى البيت.

وقف أمام الستارة السوداء يتأملها قليلا، ثم أزاحها، ليرى المرآة وقد كساها طبقة كثيفة من ترابٍ باهت كبخار الماء، فمسح الجزء المقابل منها لوجهه بيده، فتراءى له مُسخا مشوه الوجه، فأغلق الستارة مرةً أخرى بسرعة.

فتح التلفزيون.

قنوات.

قنوات.

قنوات.

أخبار.

أخبار.

أخبار.

مذبحةٌ قامت بها قوات أمن البلد الفلاني في الشعب الفلاني الذي ثار على الحاكم الفلاني، ومهازل إنسانية وجرائم حرب قامت بها قوات الاحتلال العلاني في البلد المُحتل الترتاني، وقصفٌ وحصار، وقنابل فسفورية، وتخوف من السلاح النووي، ولحى وقرود، مؤامرات، ودسائس، وتجسس، وشهداء، وإرهابيون، وتفجيرات في الأسواق، يموت فيها الأطفال، دائمًا الأطفال، كل الأطفال.

قنوات.

قنوات.

قنوات.

إعلانات.

إعلانات.

إعلانات.

ولا أحد يشتري. لا أحد يملك ليشتري. والذين يملكون لا يحتاجون لإعلانات. كان هو يشتري لكنه كف عن الشراء، كف عن أشياء كثيرة، كثيرة جدًا.

ثم برنامج حواري مذيعه يزعق، دائمًا يزعق، الآن يتحدث عن بنت عمرها ست سنوات اختطفها أخوها – الذي في الحادية والعشرين من عمره – وأصدقاؤه وتناوبوا اغتصابها في منطقة معزولة، وحين خاف أخوها من أن تخبر أمهما بما حدث، ذبحها بموسي، وقطع جثتها كي يستطيع وضعها في حقيبة، ثم وضع الحقيبة داخل قطار متجه للصعيد.

ثم تحدث المذيع عن فتاة أخرى عمرها خمس سنوات، اغتصبها جارها العاطل، وسرق منها سلسلتها الذهبية وحلقها، كان على الهاتف

أم البنت، التي رفضت أن تعلن اسمها أو اسم ابنتها خوفا من الفضيحة، وقالت أنها اتصلت لما علمت من الجيران وأولاد الحلال أن هذا البرنامج سيتكلم عن قضية ابنتها، وأنها لا تريدهم أن يذكروا أي أسماء ولا أماكن، فهي لا تريد الفضيحة، يكفي ما حدث..

فأخبرها المذيع أنه يحترم رغبتها هذه، ولكن عليها مع ذلك أن تتقدم ببلاغ للنائب العام نفسه، كي يأخذ ذلك المجرم عقابه الرادع.

فترد هي بأنها لا تريد الفضائح، البنت أبوها ميت، ولا رجل هناك للأسرة ليحميها، وهي يكفيها ما حدث كما قالت سلفا، ثم أنها سمعت أن أحد أولاد الحلال في قريتها هو من أبلغ البرنامج بالحادثة وقدم بلاغا للشرطة، وهي ترجوه من البرنامج وعلى الهواء مباشرةً أن يتنازل عن ذلك البلاغ.

شعر بالاصطناع حين فزع المذيع وسألها لمَ لا تريد أن يُقتص من المجرم، كي لا يفعل أحد فعلته تلك مرةً أخرى؟

سمع صوتها يتردد مخترقا كل شيء: وما الذي سيفرقه القصاص من عدمه لابنتي؟ لقد فقدت ابنتي أعز ما تملك إلى الأبد!.

أومأ قائلا: وأنا أيضًا!.

ثم أغلق التلفزيون.

(يونيه ٢٠١١)

أنين

أنين

ارفع صوت الموسيقى.

اجعلها تطغى على أصوات هذا العالم القذرة.

فلتمنحك الهدوء، السكينة، الانتشاء.

فلتحلق بكَ في عوالمها الخاصة، فتتمثل لكَ السعادة هناك شابة جميلة، أنيقة، ترتدي فستانا قصيرا بلا أكمام، فستانا أسود يلمع ويكشف عن ذراعين ورجلين بضّين، شعرها الأسود ينسدل على كتفيها بلا اكتراث، وابتسامتها تضيء هذا الكون. تمد لها يدك فتمد يدها. تحيط خصرها بيديك، فتحيط عنقك بيديها. تتقدم خطوةً نحوها بقدمك اليمنى، فتعود هي خطوةً إلى الوراء بقدمها اليسرى.

ارفع صوت الموسيقى.

تمايل مع فتاتك الجميلة، خذها على ذراعك وانحني بها، قبّلها، تنسم عطرها الأخاذ المثير، استسلم لها مرةً، استسلم لفرحتها مرةً، ابتسم معها مرةً حتى لو ستكون ابتسامتك الأخيرة.

ارفع صوت الموسيقى أكثر. ارفعه. لا تشغل رأسك بهذا الصراخ الذي يحيط بحلبة الرقص، ولا تهتم بالدخان المنتشر- في كل مكان حولها، أصوات الاحتراق، والأنين، ذلك الأنين.. لا تشغل رأسك به. ألم أقل لك ارفع صوت الموسيقى؟

نعم.. هيا.. هكذا.. أرأيت؟!

ارقص.. ارقص.. دع فتاتك تصفق لكَ وارقص.. انتشِ..

سيأتي صوت زوجتك ينهرك ويقول: وطي الزفت ده العيال بتذاكر.

أو سيأتي صوت جارك يهينك ويقول: هو مفيش دم خالص؟ عندنا واحد مريض يا كفرة.

أو صوت إمام الجامع يزعق: الأغاني حرام.

لن تعارض، لا تريد أن يقال فلان المحترم يفعل كذا، ربما ستفكر في ارتداء سماعات الأذن، لكنها ستضيق الخناق عليك. ستكبتك، وتقيد حريتك في هز رأسك أينما تشاء، ستمنعك من القفز إلى أعلى، أو تقبيل تلك الشابة الجميلة ذات الفستان الأسود.. أنت لا تريد أي قيود.

تنزل من بيتك صافعا الباب، لا تعرف إلى أين لكنك تريد الذهاب إلى بعيد، إلى أبعد مكانٍ ممكن، إلى مكانٍ ليس فيه أحدٌ يعرفك، مكان ليس فيه بشر.

لو أنك فقط تحلق في الفضاء!

تركب تاكسي. تركب ميكروباص. تركب مترو. تركب قطاراً. تركب أشياء كثيرة. تريد الذهاب إلى أبعد مكان، والأنين يخرج من بين أسنانك خافتا، تحاول السيطرة عليه قدر ما تستطيع لكنه يفلت أحيانا للجالس جوارك فيسألك إن كنت مريضا أو تحتاج إلى بعض الماء؟ تشكره وتحاول السيطرة على أنينك بالجز على أسنانك حتى تكاد تحطمها.

تصل إلى مكانٍ بعيدٍ جدا. طريق مهجور يشـق الصـحاري الصـفراء. والشمس توشك علىَ الغرَوب.

تقف في وسط الطريق،

تتأكد أنه لا أحد يشاهدك،

لا أحد هنا من الأساس،

أنت هنا، ولا أحد غيرك،

أنت وفتاتك الشابة. بلا موسيقى. ممتلئين بالخواء. بالألم. بالفقد.

تنظر إلى الفراغ الأصفر الممتد أمامك وتصرخ: آآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآه.

بأعلى صوتك تصرخ، من الداخل، من أعمق أعماقـك، أخرجهـا مـن ظفـر قـدمك الصـغير، اصرخ، اصرخ، اصرخ، ارفـع وجهـك نحـو السـماء ويداك تتشبثان جوارك نحو الأرض، مضمومتان، وعروق رقبتك نافرة..

الآن يحمر وجهك وتلهث وقد بدأت تهدأ. راح الأنين قليلا، وخافـت فتاتك الشابة، فابتعدت عنك إلى مسافة..

تبدأ في التفكير في طريق العودة، أثناء مشيك نحـو المحطـة يضرـب كتفك رجلٌ وهو يتجه إلى المكان الـذي لتـوك قـد عـدت منـه، تسـمعه يعتذر لكن اعتذاره يأتي من بين أسنانه، ويفلـت منـه أنـينٌ دون إرادتـه، فتبتسم له.. ثم يـ ضرب كتفك أنينٌ ثانٍ وثالث ورابع وخامس وسادس.....

تبتعد..

لكن الآهات التي تعلـو تباعًـا تصـل إلى مسـامعك ومسـامع فتاتـك الشابة، فيزداد خوفها وتبتعد أكثر حتى تختفي.

(أغسطس ٢٠١١)

" حين أكتب عن أشياءٍ محزنة؛
لا أريدكم أن تبكوا،
بل أريدكم أن تعملوا
على تغيير مقادير تلك الأشياء "
أنطون تشيخوف

تتر الكتاب

تتر أي فيلم، هو حين تظهر أسماء كل فريق العمل في نهاية الفيلم، من مصورين وسائقين وديكور ومخرجين مساعدين، و.. و.. و.. إلخ.. كل هؤلاء شاركوا في أن يظهر الفيلم بصورته التي ظهر عليها، ولو كان واحد منهم فقط سيئا أو لا يعرف عمله جيدا، لبان ذلك في الفيلم جليا.

دائما يُهضمون حقهم، فلا يعرفهم أحد، ولا يظهرون إلى الأضواء، ويكون الاسم الذي يلمع ويظهر فقط على الأفيش هو اسم البطل..

ولهذا الكتاب الذي انتهيت منه يا عزيزي القارئ؛ تترا.

هناك أسماءَ كثيرة ساعدت في ظهوره بهذا الشكل الذي تراه، وأظنه سيكون جيدًا، وهؤلاء إما ساهموا بقراءة نقدية واعية، أو دعمٍ معنوي، أو تشجيع لفظي، أو مجرد أشعروني بإيمَانهم بي، وثقتهم ثقة مطلقة في وفيما أكتب، والآن وهنا أعبر لهم عن عرفاني بفضلهم، وعن امتناني وشكري البالغ..

فأستأذنك أيها العزيز - إن كان هذا الكتاب قد أعجبك - أن تقرأ هذه الصفحات، حتى تعطي لهؤلاء حقهم..

هؤلاء هم:

أستاذي ومعلمي والأسطورة التي سأظل دائما أضعها نصب عيني؛ بهاء طاهر.

أمي؛ وذلك البهاء الرباني المطل من وجهها، إن كان لي من نجاح يوما، فبفضل دعواتك.

أبي؛ عسـ اي أكون قد حققت جزءَ من حلمك المهزوم.

أختي؛ دمتِ لي قلبا مفتوحا، وصدرا حانيا.

أخي؛ إياكَ ثم إياكَ ثم إياكَ أن توجع قلبي عليك يومًا.

معلمتيَ الرائعتين؛ عبير عطيفي، ومنار عطية، كم أنا مدين إليكما!.

ناشري العزيز وصديقي وأخي الأكبر؛ دكتور مصطفى البنداري.

والداعم الأكبر؛ والذي أصر دائما أن أقول له: أنت أخي الذي لم تلده أمي، مصطفى جلال.

وصديقي دائما وأبدا؛ حمادة زيدان، تعرف جيدا أني أحبك.

والناقد الصعب إرضاءه جدًا، الأعز؛ أحمد العطار. وينضم إليه أيضا العزيزة؛ هانا حاتم.

وناصحي الأمين وأخي الأكبر؛ د. محمد الدسوقي.

وصديقي الأنتيم؛ أشرف السعيد.

ومن تلهمني دائما (وفي هذا الكتاب ألهمتني قصتين كاملتين)؛ دعاء الطويل.

والعزيزة جدا جدا؛ صديقتي الأنتيم؛ هالة الهاشم. لألف سبب وسبب.

والعزيزة جدا جدا؛ ندى مدحت. شكرًا ضخمة حقا.

والعزيزة جدا جدا؛ آية هلال.

والقاهريان العزيزان جدا؛ آية شاهين، وكريم عادل.

وفريق الكفاح المسلح: محمد نبيل، إسلام بحيري، نادر عصر، معتز رزق، أحمد إبراهيم، أحمد وردة، نور الموافي، أحمد هاشم. كم أفتقدكم يا رجال!.

وإبراهيم كامل، وأحمد النشار. في ذكرى أجمل سنة جامعية!.

والذي علمني التواضع؛ محمود الشهاوي.

ومنهل ثقافتي؛ محمد القديم.

والمجنونان العاقلان: عبد الرحمن سليمان، وطارق محروس. تعرفان كم أحب جنونكما!.

ورسامتي العزيزة؛ علا الإتربي، (بضم العين، والهمزة المكسورة أرجوك!) شكرًا خاصة حقا، فدونكِ لم يكن كل ذلك ليتم.

والصديقان العزيزان اللذان يقولان لي كلمةً تصيبني بالفزع، وتسكرني فخرًا؛ محمد مختار، وباسم علاء.

والأعزاء جدا؛ محمد جلال (شريكي في كتابنا الأول)، ويوسف ناصف (ناشر كتابي الأول)، وعبد الرحمن الصواف (مصمم غلاف كتابي الأول وهذا أيضا)، فلولاهم لما كان هذا الكتاب الثاني.

وصديقي العتيد؛ محمد زغلول.

وأصدقاء أعزاء ربما لم يكن لهم تأثير في هذا الكتاب، لكن تأثيرهم في نفسي عظيما، وشاءوا أم أبوا سنظل أصدقاء دائما: سلمى محمود

إسماعيل، سالي الشيخ، ومحمد وائل، وابن عمته: وائل العطار، الفنان المثقف، (ارحموني من هذه العائلة!).

والداعمتان دائما؛ بِنتيَ خالتي؛ سمية إبراهيم، وهند إبراهيم.

وجميع الأصدقاء في متاتيا؛ وأخص: عمر فوده، وغادة السيد، وعمرو عبد الكريم.

وإيمان عامر؛ استمري، واصمدي!.

وصديقي الصغير سنا الكبير إدراكا؛ ماجد عبد الدايم.

والعزيزتان؛ شيماء عصام، وأمنية الأشول.

والأعزاء في راديو حياة؛ وفي جروب ألف قصة وقصة؛ ولن أخص أحدا، فالقائمة تطول حقا.

ولكنيِ لم أتعمد ترتيبا بعينه، وأخشى أن يكون عقليِ المشتت، قد فقد اسمًا أو اثنين ممن لهم عليَ فضل، فإن كنت واحدًا منهم، فأنا أعتذر.

ميسرة الهادي

المنصورة

نوفمبر ٢٠١١